الى الشاعر
محمود علي السعيد
المحترم
يوسف

يوسف سامي اليوسف

رمضان
١٤٠١هـ.

الغيتو الصهيوني

دار الكرامة

تنضيد وإخراج

دار الكرامة

طباعة * نشر * توزيع

دمشق * مخيم اليرموك * شارع صفد

هاتف: ٦٣٦٢٧٣١

تصميم الغلاف:

محمد فوزي حميد

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الغيتو الصهيوني

إذا كبُر العقل صغرت الأشياء

يوسف

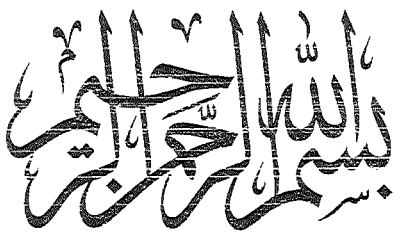
بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

تعمدت عن سالف إرادة أن أعنون هذا الكتيّب بعنوان (الغيتو الصهيوني)، متجاهلا ذلك الاسم العالمي الذي يطلق عادة على بنيان بناه الغربيون لليهود على أرض فلسطين السليبة مع أن ذلك الاسم نفسه هو كلمة كنعانية، أي فلسطينية جزماً، إذ هو ينطوي على كلمة (إيل) التي هي اسم الله سبحانه وتعالى، في اللغة الكنعانية، وهي اللغة التي انتحلها اليهود وسموها اللغة العبرانية دون وجه حق.

ولا مرية عندي في أن اسم (الغيتو الصهيوني) ألصق بذلك الكيان الزائف وغير الطبيعي من الاسم العالمي الذي يحمله الغيتو نفسه. يقيناً، إنه لا يليق به سوى اسم يدل على العزلة حصراً، وذلك لأنه معزل بالفعل، أو جحر سوف يظل اليهود محصورين في داخله إلى أن يأذن التاريخ بزواله إلى الأبد. فلا ريب في أنه إنجاز آني عابر مرهون بآبار النفط العربي التي انبثق منها، والتي ما أن تجف حتى يجف معها ويتلاشى بحيث لا يعود له وجود قط. فلا مبالغة في الزعم بأن النفط ما كان إلا وبالاً على العرب، فلقد أهينوا كثيراً من أجله وسوف يهانون أكثر وأكثر في مستقبل الزمان. ولابد لي من التنويه بأن هذا الكتيب ليس عملاً هجائياً حتى وإن ظهر بهذا المظهر لبعض الناس ممن ينقبون

عن أصغر الهفوات والزلات ليصنعوا من الحبة قبة. ولكنني أنيط به وظيفة خلاصتها أن يرصد الحقائق التي يسكت عنها علم التاريخ التقليدي، حتى وإن كانت تدور على ألسنة الناس في الشوارع. فالمؤرخ التقليدي يرفض مقولة (المؤامرة)، مع أن الأحداث يتعذر تفسيرها، أو يتعسّر، بغير هذه المقولة حصراً. فكيف يفسّر من يغفل مقولة المؤامرة أن الجيوش العربية التي دخلت إلى فلسطين في شهر أيار سنة ١٩٤٨م، قد أبرمت اتفاقية هدنه مع الصهاينة بعد ذلك الدخول بقليل، علماً بأن أولئك الصهاينة أنفسهم يقرون ويعترفون بأنهم ما كان لديهم سوى أسلحة خفيفة ومحددة الكمية يومئذ، أي مع أن تلك الجيوش كانت قادرة على أن تسحقهم وتمنع بنيانهم من النشوء، مالم تتدخل أساطيل الغربيين والشرقيين على السواء.

وهنا ينبغي التأكيد والتشديد على أن العدو الداخلي أخطر من العدو الخارجي، وذلك لأن الثاني لا يملك أن يهزمنا بغير الأول. ويبدو أن السياسة في العالم بأسره ليست شيئاً آخر سوى فن تدجين الشعوب وترويضها ابتغاء استلاب حرياتها ونهب ثرواتها لصالح حفنة صغيرة من دهاقنة المال. فها هو الإنسان العربي يتعرض للنهب والقتل يومياً، كما أن بيْته يهدم على رأسه، وفوق ذلك فإنه إرهابي ومخرب، سواء ناضل عن نفسه أم لم يناضل. أما أولئك الذين ضربوا

اليابان بالأسلحة النووية مرتين فملائكة هبطوا من الفردوس الأعلى.

وفي صلب الحق أن هنالك طبقة خائنة في العالم العربي أو هي متحالفة مع الإمبريالية والصهيونية على نحو معلن. إنها طبقة أصحاب المليارات الذين هم على أهبة الاستعداد لطحن عظام البشر كما يطحن القمح إذا ما كانت هنالك حاجة إلى ذلك. ومن العجائب أن يصاب الكثيرون بقصور الرؤية فيعجزون عن إدراك هذه الحقيقة التي لا تخفى على من له ذرة عقل. فالبصر ليس الجوهر، وإنما الجوهر هو البصيرة القادرة على استخلاص الغائب من الحاضر أو المفقود من الموجود. ومع ذلك، فإن الأمر شديد النصوع، إذ لقد صار الحلف المثلث في هذه الأيام أوضح من عين الشمس في رأد الضحى.

ولهذا، أقصد بسبب هذا التحالف، فإن منطقتنا تزود عدوها بمصدر القوة التي يستخدمها في امتهاننا وقتلنا وتحويلنا إلى إذعان مجسّد. وهذا يعني أن الفريسة نفسها تموّل من يفترسها بالمال اللازم لافتراسها. ولكن ما هو أعجب من ذلك وأغرب أن جيوشنا تقف على الحياد، وأحياناً تذوب كما يذوب الملح في الطعام، وذلك عند شدّة حاجتنا إليها تماماً.

وبهذا، فإنها تفسح المجال أمام غزاتنا كي يفعلوا بنا مثلما فعل المغول قبل ثمانية قرون. والفرق بين مغول الأمس و مغول اليوم أن أولئك قذفوا بالكتب في نهر دجلة، أما هؤلاء فأحرقوها بالنار.

فلعل في الميسور القول بأن ما يجري في العالم العربي منذ عام النكبة حتى اليوم لايندرج في إطار النواميس التقليدية للتاريخ البشري. يقيناً أن ما يجري هو الغرائب وقد أحيلت من التجريد إلى التجسيد.

ويبدو أن سياسة زرع اليأس في النفوس متفق عليها بين جميع أطراف الحلف المثلث. فبعد عام النكبة كانت السياسة العربية المعلنة بواسطة أجهزة الإعلام تهدف، في ظاهر أمرها إلى إزالة الغيتو الصهيوني من الوجود، ولكنها تحولت بعد مناوشة حزيران المريبة سنة ١٩٦٧م، فصارت تنادي بإزالة آثار العدوان. أما بعد سنة ١٩٧٣م، فقد أخذت محوراً آخر، وهو محور السلام مع الغيتو الصهيوني، وذلك بعد ما يئس الشارع العربي من إمكانية القضاء عليه بغية استرداد الوطن السليب. وربما جاز الزعم بأن ما يتعرض له الإنسان العربي من مجازر وهجمات همجية لا هدف له سوى إرغامه على الامتثال للإرادة الصهيونية، والقبول بشرعية الوجود الصهيوني في فلسطين المغتصبة.

ولكن ما يستحق إشارة خاصة هو أن الخلل ليس في البنية العسكرية أصلاً، وإنما هو في البنية السياسية التي عطبت جذور الإنسان العربي في رابعة النهار.

****

ترى، هل شعر أولئك الغربيون بالسعادة بعدما شطروا العالم إلى شطرين متناقضين، أحدهما ناهب والأخر منهوب؟ ألم يدركوا أنهم بهذه الفعلة الإمبريالية

قد أحالوا كرتنا المنكوبة بالأنذال إلى (أرض يباب) كما قال أحد شعرائهم ذات يوم. فربما جاز للمرء أن يزعم بأن العالم الحديث ينطوي على مفارقة لا رفع لها بتاتاً. وخلاصتها أن ظاهره عمار وباطنه دمار. وهذا يعني أن الكائن الإمبريالي قد ربح العالم و لكنه خسر نفسه. فماذا عساه أن يكون مذاق هذه الحضارة التي بنتها القرصنة والإرهاب والاعتداء على الأمم التي لاتملك أسباب الدفاع عن الذات؟

ولا غلو في القول، بل لا افتئات على الحقيقة، إذا ما ذهب المرء إلى أن الكائن الإمبريالي يعيش صنفاً من أصناف العطالة في داخله أو في وجدانه. ومن شأن هذه المثلبة الماحية للماهية أن تسلبه إنسانيته وتحيله إلى غول يلتهم كل شيء، ولا وظيفة له إلا أن يصنع البؤس لبقية الجنس البشري. فهو غارق في السكر والمخدرات والابتذال الشبقي، ومن أجل هذه الممارسات المنحطة، فإن يديه كلتيهما تقطران دماً على الدوام. لقد أمضى القرون الستة الأخيرة وهو يدهم كل مكان على الأرض، ويصنع مسلسلاً من الحروب لانهاية له، إذ إنه لا يطفئ حرباً في مكان ما حتى يشعل أخرى في مكان آخر، بحيث لم ينج من شره أي أفق من آفاق هذا الكوكب الأرضي بأسره. وهذا يعني أن الإنسان الأورو - أمريكي مختص بالقرصنة والجريمة والعدوان. ومما لا يخفى على الحساسين أنه ما أنجز سوى عالم يفتقر إلى الدفء والأنس وهداة البال.

ويتضح من ذلك كله أن الغربيين منذورون للهمجية، وأن إنسانيتهم منقوصة، بل معطوبة، ولا تقبل الشفاء بتاتاً. ولا يخفى على عاقل أنهم تطرفوا في الفساد كثيراً حتى لقد أفسدوا أنفسهم، أعني أنهم لوثوا الهواء الذي يتنفسون. ويندرج في هذه الحقيقة الموضوعية زعم مؤداه أنهم لا يقبلون الكمال بتاتاً، وذلك لأنهم مكرسون للشر وللغرائز الجسدية، كما أنهم يجهلون الروحي أو الإنساني جهلاً مطبقاً. والكمال هو الغاية النهائية للكائن البشري، وفقاً لمذهب الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، بل وفقاً لأي مذهب سليم.

ولقد زعموا أنهم أسمى عرق أنتجته الطبيعة (غوبينو، رينان، لوبون...الخ)، ولكن فاتهم ما فحواه أنهم لو كانوا العرق الأسمى لكانت الحضارة قد بدأت في بلادهم. ومما ليس في صالحهم أن الحضارة البشرية قد بدأت خارج أوربا، وأنهم قد كانوا آخر من دخل التاريخ من البشر، إذ إن عمرهم يبدأ باكتشاف أمريكا الذي ما كان إلا وبالا على الجنس البشري كله. ومع أنهم يتشدقون بالتفوق، فإنهم لا يفطنون إلى وضعهم الذي لا يسمح لهم بأن يكونوا أكثر من قراصنة ومجرمين وذوي عدوانية درجتها أعلى من درجة العدوانية الرومانية. وفضلاً عن ذلك، فإنهم مكرسون لخدمة الصهيونية. وهذه علامة من علائم انحطاطهم لا تفلت من قبضة الخبير بالتاريخ، ولاسيما بانحطاط المجتمعات. فلعل في ميسورك أن تعرف الكائن

الأورو- أمريكي بأنه الموجود من أجل اليهود. ومما هو مثير للذهول أن العالم بأسره مستنفر ومحشود ليسهر على أمن الغيتو الصهيوني. أجل العالم كله، من اليابان شرقاً إلى اليابان غرباً. ولست لأبالغ إذا ما زعمت بأن إسهام العالم العربي في بناء الغيتو الصهيوني وحمايته ودعمه أكبر بكثير من إسهام الغربيين والشرقيين على السواء.

وحبذا أن يتذكر المرء في هذا الموضع ما قاله سقراط في (الدفاع): "إن حياة لا تفحص لهي حياة لا تستحق أن تعاش". فلو فحص الغربيون حياتهم لما فاتهم أنهم يأكلون لحوم أطفال الأمم الضعيفة، وأنهم بذلك يخسرون ماهيتهم الإنسانية. ولكنهم لو اكتشفوا حيوانيتهم وهمجيتهم لما رف لهم جفن، إذ إن ضمائرهم مطفأة أو مترمدة. فلقد استطاع جشعهم الذي يجهل الحد أن يضللهم ويخدر أذهانهم ويحول بينهم وبين الكثير مما هو متين الصلة بإنسانية الإنسان.

ولو أنهم محّصوا حقيقة صناعتهم التي ما بناها إلا الجشع والأنانية، أو لو أنهم راحو يتحرون الباطن الدميم الذي تضمره تلك الصناعة، لاكتشفوا أنها لا خير فيها البتة، إذ لو كان فيها خير لما فاتت الحضارات القديمة المغرمة بالدين والفن والحكمة والشعر، أي بكل ما هو حميم وأنيس. فمع أنها تشبه السحر بسبب قدرتها على اجتراح المعجزات، فإنها إنجاز إبليسي حققته مجتمعات لا تقيم للإنسان أيما وزن ولا تضفي عليه

أية قيمة. فها هو ذا الفرد في بلادهم يقعي على رَصيف الدرب ويمارس غرائزه بحرية مفتوحة، شأنه في ذلك شأن أية بَهيمة أخرى. ومما هو مدهش أنهم قد نظروا إلى هذه الحضارة المفرطة في المادية بوصفها التقدم بأم عينه، مع أن السداد أن يقال بأن الإنسان ينحط ولا يتقدم في سواء هذه الضوضاء الاقتصادية العالمية.

فمما هو موضوعي تماماً أن قيمة الإنسان تتناسب عكساً مع وفرة المال والبضائع داخل المجتمع، فكلما ارتفعت قيمة السلعة انخفضت قيمة الروح. وهذا يعني أن الإنسان لن تعود إليه إنسانيته، أو قيمته الحقيقية التي هي حريته وماهيته معاً، إلا إذا زال المال من الوجود زوالاً كلياً ونهائياً. فما دام هنالك مال كان الإنسان وسيلة للمال بدلاً من أن يكون المال وسيلة للإنسان.

وقد أفضى انخفاض قيمة الإنسان في المجتمعات الصناعية المعاصرة إلى تدهور الآداب والفنون والفلسفات والأديان. بالأمس القريب كانت أوروبا تعج بالمشاهير من الشعراء والروائيين والمسرحيين والفلاسفة والرسامين، أما اليوم فلم يبق هنا لك شيء من ذاك على وجه التقريب، إذ لقد انحطت ثقافتهم وانتهى الأمر. وانحطاط الفنون والآداب هو صنف من أصناف التمهيد للانحطاط الشامل، أو لعله أن يكون تمهيداً للزوال. فمما هو مؤكد – وفقاً لنظرية ابن خلدون – أن

الانحطاط إذا وقع في الجسم الحي تعذر ارتفاعه على نحو حاسم.

يوم حاصر الصليبيون معرة النعمان، أعطوا أهلها الأمان ودخلوها سلماً، ولكنهم فتكوا بالناس بعد ما فتحت المدينة لهم أبوابها. وأهم ما في أمرهم أنهم أمسكوا بعدد من الناس ووضعوهم على السفود ثم أكلوا لحومهم بعدما صاروا شواء. وهذا خبر أوردته مؤرخوهم، ولم يذكره المؤرخون العرب بتاتاً. إنهم من الجشع بحيث لا يشبعون قط حتى لو أكلوا لحماً بشرياً. هكذا كانوا في ما مضى، وهكذا هم الآن في القرن الحادي والعشرين.

إن أولئك الغربيين الذين يحترفون القرصنة والإرهاب والعدوان هم حماة الصهاينة، وهم أصل نكبتنا وما نحن فيه من بؤس وشقاء. إنهم مكرسون لخدمة اليهود، أما اليهود فمكرسون للكذب والتزوير وجميع أصناف الشرور.

الفصل الأول

العزلة

لعل مما هو واضح أن اليهود قد استطاعوا أن يحشدوا معظم القوى العظمى في العالم، ولا سيما البلدان الأوربية والولايات المتحدة، من أجل الاستيلاء على فلسطين، ولكنهم في نهاية المطاف لم يصنعوا شيئاً سوى أنهم قد أسسوا صنفاً من أصناف الغيتو المعزول فوق هامش منطقة ليسوا منها وليست منهم بأي حال من الأحوال. ويبدو أن العزلة قدر محتوم على اليهودي مالم يتخل عن اليهودية المتحجرة. وتنطوي هذه الحقيقة على أن الديانة اليهودية نفسها هي سجن أصرت بعض الكائنات أن تسجن نفسها في داخله الكئيب. لقد صنف هنري برغسن، الفيلسوف الفرنسي اليهودي، الأديان في صنفين: أولهما ساكن أو مغلق، وثانيهما متحرك أو مفتوح. وربما جاز القول بأن اليهودية هي أولى الديانات الساكنة أو المغلقة. وهذا مالم يقله برغسن بتاتاً.

لقد بنى الغربيون لليهود معزلاً يعيشون فيه دون أن يتمكنوا من الاندماج مع أهالي المنطقة، تماماً كما هو

حالهم إذ يعيشون في حارات معزولة داخل أية مدينة من المدن التي يستقرون فيها. وما من أمارة في هذه الأيام تملك أن ترهص بأن المجال العربي سوف يتقبلهم، أو سوف يزيح عن الغيتو صفة العزلة، على الرغم من الصلح الذي أبرم بينهم وبين بعض الحكومات العربية منذ مدة ليست باليسيرة. ولهذا، فإن اليهود يناسبهم المثل القائل:"تمخض الجمل فولد فأراً." لقد استنفروا العالم وحشدوه ليقيموا هذا المعزل السخيف الذي لن يعجز تلاطم أمواج التاريخ عن تدميره، ولو بعد مئات السنين. فما أسخف هذه الصهيونية وأصغر عقلها، ولكن الذين دعموها، وأفرطوا في دعمها، هم أسخف منها وأصغر عقلاً وأكثر لؤماً وحقداً على الشعوب الأخرى.

أو يعقل أن يكون هذا الصخب كله من أجل معزل لا قيمة له بتاتاً عند كل من له أدنى خبرة بشؤون التاريخ، بل حتى عند أي عاقل، مهما تك درجة خبرته؟ ثم هل هنالك أحد سوى الشخصية اليهودية الشاذة، أو المعتلة، يقبل بأن يثير معضلة كهذه المعضلة التي أثارها اليهود في العصر الحديث؟ فلكم هو زائف ذلك الادعاء الصهيوني القائل بأن التاريخ ظل يسير معوجّاً حتى جاء الصهاينة و صححوه. حسناً مادام التاريخ يعوج ثم يقبل التصحيح، فلماذا لا يتمكن الفلسطينيون من تصحيحه أيضاً؟. فالتاريخ نتاج لإرادة البشر وحراكهم ونشاطهم. من المؤكد أن الشعب الفلسطيني في هذا الطور التاريخي محاصر حتى درجة الاختناق، إذ

تألبت عليه جميع القوى بغير استثناء، وهي لا تتساهل إلا مع المتنازلين عن فلسطين وحدهم. ومع ذلك، فإن النصر سوف يكون حليف الفلسطينيين في المستقبل البعيد. ثم إن الآلام التي جاء بها ذلك الغيتو لليهود لا تقل كثيراً عن الآلام التي ألحقها بالعرب. أو يعقل أن تحل هذه الكوارث كلها بالناس من أجل جحر ضب تافه؟ يا لغياب العقل! يقيناً إن آلامهم من الضخامة بحيث لا يضارعها حجم المردود المادي الذي يجنيه الصهاينة من جراء بناء هذا الغيتو على أرض فلسطين. ومما هو جد محتمل أنه سوف يجلب المزيد من الآلام للطرفين، كما أنه قد ينتهي نهاية فاجعة، ولو بعد مئات السنين. و لهذا، فإن من حق الذهن أن يتساءل عما إذا كان ذلك الغيتو جديراً بهذه الجهود المضنية التي بذلت من أجله، وبهذه الآلام التي يكابدها الطرفان يومياً من جراء و جوده الذي لا لزوم له بتاتاً. ويبدو أن سكان الغيتو يتوجب عليهم أن يمار سوا القتل كل ساعة وحين يتوقفون عن ممارسة الإجرام، فإن الغيتو سوف يكف عن الوجود حتماً.

ومن الغرائب أن كتاباً مرموقين وفلاسفة مشهورين في العالم كله قد راحوا يدعمون الصهيونية دون تحفظ، وغير عابئين بأرواح اليهود الذين قتلوا في الصراع الدائر منذ صدور وعد بلفور سنة ١٩١٧م حتى اليوم. وكان جان بول سارتر الفرنسي، وكارل ياسبرز الألماني من أبرز المثقفين الذين أيّدوا هذا الشر

المقيت. ولقد تطرف ياسبرز فأيد العدوان الأمركي على كوريا وكذلك على الفيتنام، كما أيد العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦م. فهو لم يعد يملك أن يرى أحداً أو شيئاً آخر سوى الغرب ويهوده فقط، أما بقية البشرية فليس أمامها سوى خيارين: إما أن تركع وإما أن تباد وتتلاشى من الوجود. وهكذا راح ياسبرز يدعم الصهيونية والإمبريالية دون أي شعور بالخجل أو الحياء.

ولكم كان بوريس باسترناك الكاتب الروسي المشهور سخيفاً وتافهاً حين زعم بأن اليهود قد حرروا البشرية من نير الوثنية، وذلك في روايته المعروفة، (الدكتور جيفاكو). (الفصل التاسع، الشطر١٥) وبسبب هذا الموقف الشائن نال ذلك المسكين جائزة نوبل سنة ١٩٥٨م. ترى هل يفضل عاقل ديانة اليهود الكابية الكالحة على الوثنية ذات السمات السرية النبيلة؟

إذن، في هذه الأيام الممرورة تقف الأوروبتان والأمريكتان، يضاف إليهما كوريا و اليابان، على أهبة الاستعداد للدفاع عن الغيتو الصهيوني، مع أن هذه الأهبة فعل لاعقلاني، ولا يملكَ الذهن أن يكتشف ما يسوغه قط. وفضلاً عن ذلك، فإن هذا الموقف شائن أو معيب، لأنه يجعل من أهل تلك الآفاق مجرد خدم لليهود. ولكن أهم ما في الأمر أنها بلدان قوية جداً في الزمن الراهن. ولهذا، فإن الفلسطينيين لا أمل لهم على المدى المنظور. أما قوافل شهدائهم فلا غاية لها سوى

أن تصنع شرفاً لهذا الشعب الباذخ العظيم الذي ما من شعب آخر سواه يستحق التبجيل، وذلك لأنه الشعب الوحيد الذي أبى أن يركع لليهود، بينما ركعت جميع شعوب الأرض تحت نعالهم، وكانت القوى العظمى في رأس قائمة الراكعين.

لعلنا في عصر الغرائب والعجائب. فما الذي دفع هذا العدد الضخم من البلدان باتجاه تبني الغيتو الصهيوني الذي لا لزوم له بتاتاً؟ والأعجب من ذلك كله هو هذا الحشد من الجيوش التي تجمعت ودهمت منطقتنا في الفترة الأخيرة. يقيناً، إن هذا هو الغزو الأغرب والأعجب في تاريخ البشرية برمته. ترى متى احتشدت جيوش من الأوروبتين والأمريكتين وآسيا الشرقية وأستراليا ونيوزلندا لتهاجم بلداً واحداً أياً كان اسمه؟

إن ما قد جرى في فلسطين هو برهان على اللاعقلانية التي يتصف بها التاريخ والواقع. وكل محاولة تهدف إلى عقد صلح بين العقل والحياة لا مآل لها سوى الإخفاق المحتوم. وذلك لأن العقل لا يرضى عن الحياة إلا حين يكون منقوصاً أو ممروراً وحسب.

****

ومما هو معلوم أن الحركة الصهيونية أسبق في الظهور من نفط العرب، ومع ذلك فإنه ما من شيء قد أتى باليهود إلى فلسطين سوى جشعهم الذي دفعهم إلى المشاركة في الذهب الأسود. وربما كانت حصتهم من ذلك النفط أكبر من حصة أية دولة عربية مهما يكُ حجم

إنتاجها النفطي. ففي سنة ٢٠٠٢م، كانت ميزانية الغيتو أربعة وستين ملياراً من الدولارات. وهذا مبلغ يعادل تلاً من الذهب الأصفر، وهو الذي قال عنه روميو في مسرحية شكسبير المشهورة بأنه أخطر من السم. فلو بيع الغيتو ومن فيه من الناس والدواب والأرض والبيوت والمصانع والمزارع لمادّر ذلك البيع المتخيّل مثل هذا المبلغ الشديد الضخامة. فمن أين جاؤوا بتلك الأموال الطائلة كلها؟ لا ريب في أن الغربيين قد نهبوها من نفط العرب وسلموها لسكان الغيتو ليتنعموا بها وينفقوا منها على جيشهم وأسلحتهم الفتاكه، تاركين الملايين من أطفال العرب للفقر والحرمان. يقيناً، إن الذهن البشري يستطيع أن يستخلص اللامرئي من المرئي و المجهول من المعلوم.

فالذي جرى بالفعل هو أن اليهود قد أبدلوا بدمهم نفطاً، أو ذهباً جلب لهم من الترف مالم يحلموا به في أوربا الشرقية ذات الثروات الطائلة والفقر المزمن. ولقد تمت هذه المقايضة بواسطة بعض أقطار الغربيين التي يملكها اليهود كما يملك المرء قميصه أو حذاءه. وهم يتخذون تلك الأقطار أداة تؤدي بهم إلى مقاصدهم التي تتلخص في الهيمنة على العالم كله. وبغير هذه الأداة الحادة التي تسمى الغربيين، فإن اليهود لا يملكون أن يفعلوا شيئاً، أو أن يهيمنوا على شيء، حتى إنهم لن يتمكنوا من حماية الغيتو نفسه. ولكن متى وكيف استطاع اليهود أن يتملكوا الاوروبتين والأمريكتين؟

فمما هو معلوم أن العداء بين اليهود والأوروبيين قد كان مستفحلاً في الماضي حتى تبدى وكأنه عداء أبدي. فكيف استطاع اليهود أن يدجنوا أولئك الأوروبيين المنسوجين من الشراسة أو من لباب الشر؟

وفي الحق أن هنالك شبهاً كبيراً بين جذور الغيتو الصهيوني و جذور الولايات المتحدة حصراً، إذا لقد انبثق التجمع الأول من جريمة النكبة التي أنزلها بالفلسطينيين سنة ١٩٤٨، وانبثق التجمع الثاني من إبادة الهنود الحمر على نحو استئصالي يبذ ما فعله المغول في بعض البلدان الآسيوية، ولا سيما في بغداد. ولئن كان تاريخ أمريكا المحلي قد بدأ بإبادة الهنود الحمر، فإن طورها العالمي قد بدأ بجريمة أخرى لا تقل ترويعاً عن الأولى، وهي جريمة الضربة النووية التي سددتها تلك الأمة الإرهابية لليابان سنة ١٩٤٥م. إنها أمة تحترف العدوان والإجرام، وفيها ولع بإضرام نار الحرب دون أي سبب كافٍ. وبإيجاز، إن الإمبريالية والصهيونية معاً تقومان على مبدأ ممارسة الإرهاب، وحين تكفان عن هذه الممارسة فإنهما سوف تكفان عن الوجود.

لست أتعمد البتة أن أكون تنديدياً أو هجائياً، ولكن الحقيقة نفسها لها صفات تستحق التنديد، إذ العالم ساقط على نحو لا رجعة عنه، أو هكذا يراه الذين شبوا عن الطوق.

ولا مبالغة إذا ما زعم المرء بأن تلك الأمة المصابة بداء الهمجية الذي لا برء لها منه إلا إذا قررت أن تكف عن الوجود، قد سلمت الروح من جوف الإنسان بحضارتها الصناعية المكدودة العجفاء، والتي لا تشبه إلا وحشاً خرافياً كلما أكل أكثر جاع أكثر، بل ازداد جشعاً وميلاً إلى الازدراد. لقد تجوف الإنسان، أو تجيّف، في طور الصناعة الذي هو أتعس طور عرفه التاريخ البشري كله. نعم راح كل شيء لبابي يجف أو ينشف ويتبخر، فصارت الحياة صنفاً من أصناف الاعتلاف بالتبن والزؤان. فها هو ذا الإنسان في قلب معضلة لا مخرج منها بتاتاً، ولا أحد يعرف لها حلاً مهما يك نوعه.

****

ثم إن الإرهاب الذي مارسه الأوروبيون الغربيون، ولا سيما أولئك الذين فتحوا الأمريكتين، هو الأبشع بين جميع أصناف الإرهاب التي عرفتها الكرة الأرضية منذ فجر التاريخ حتى اليوم. ولقد ارتكب أولئك الأوروبيون عدداً كبيراً من المجازر في العالم الثالث. وستبقى تلك الجرائم لطخة عار على جبين تلك الأمم التي تحترف القرصنة والعدوان. يقيناً إن حضارة أوروبا قد بنتها القرصنة. يقول الإنجليز،وهم أمة من الجوارح (على الله وعلى الأسطول تقوم الإمبراطورية.) وهذا تصريح جهري بأن القرصنة هي كل شيء في حياة تلك الأمة العدوانية الإرهابية.

ولكن الأمة الأمريكية هي أبرز تلك الأمم الإرهابية أو العدوانية وأكثرها ميلاً إلى الإجرام وإراقة الدماء. ولابد من أن يكون المواطن الأمريكي كائناً في حالة غيبوبة تامة، فضلاً عن أنه حيوان شرس و مفترس وذو ميل عال إلى العدوان واجتثاث الحياة. فما هو عدد الحروب التي خاضتها الأمة المجرمة منذ انتصاف القرن العشرين حتى اليوم؟ هنالك حرب كوريا والهجوم على لبنان سنة ١٩٥٨م، ثم حرب الفيتنام وكذلك الهجوم على لبنان مرة أخرى سنة ١٩٨٤م والهجوم على الصومال سنة ١٩٩٢م، والهجوم على العراق سنة ١٩٩١م، ومهاجمة العراق مرة أخرى سنة ١٩٩٨م واحتلال العراق سنة ٢٠٠٣م. ولقد نسيت مشاركتهم السرية في حرب الفوكلند سنة ١٩٨٢م، إذ لقد كاد الإنجليز أن يهزموا أمام الأرجنتين في تلك الحرب، فتدخل الأمركيون وحسموها لصالح إخوانهم في اللغة ولكن الأمر قد تم سراً وظل مجهولاً حتى كشف عنه وزير البحرية الأمريكي بعد تلك الحرب بأكثر من عشرين سنة. أما هجومهم على أفغانستان فقد مهدوا له بضربة الحادي عشر من أيلول التي افتعلوها افتعالاً ليعدوا جماهيرهم المغمى عليها للهجوم على بلد تحكمه يومئذ حكومة من شأنها أن تخيف اليهود.

أما العراق فابتلي بهم كما ابتلي بالمغول ذات يوم. وللمرء أن يتساءل عن جدوى هذا العذاب الشائن المرير، وهذه الكوارث التي أحالت حياة العراقيين إلى

بؤس وشقاء. ما من دافع بتاتاً سوى إرادة اليهود وهمجية البيض الناطقين باللغة الإنجليزية كلغة أولى. نعم إن مصير العراق يحدده اليهود، كما تحدده تلك النزعة العدوانية التي لا شفاء منها للإنسان الأمريكي على المدى المنظور. لقد تطوروا فصاروا ناعمين من حيث المظهر، يأكلون بالشوكة والسكين، أما قاع نفوسهم فثابت راسخ يمور بالذيفان وسموم الحقد والميل إلى العدوان.

وليس من صنف المبالغة أن يقال بأنه ما من بؤس في الأرض طوال السنوات الستين الأخيرة إلا وسببه أمريكا التي تمتص دماء الأطفال في البلدان الفقيرة. إن تلك الأمة التي تعيش من الغزو، تماماً كالقبائل البدوية، تريد أن تلتهم ثروات الأرض كلها، ومن عارضها فإنه إرهابي أو همجي ومعاد للحضارة، ولا يستحق إلا الموت. فماذا عساه أن يكون الدافع الذي دفع الأمريكيين والإنجليز إلى تعذيب المعتقلين في السجون العراقية على نحو إرهابي خسيس؟ هل من دافع سوى ميلهم إلى تفريغ شحنتهم العدوانية في أجساد الضعفاء؟ فهذا هو عصر أمريكا، وويل للشعوب في عصر أمريكا. ولكم سوف تعاني الدنيا وتقاسي من تلك الأمة المجرمة ومن سقامها الهمجي أو الإجرامي، وكذلك من لا عقلانيتها وميلها الدائم إلى القرصنة والإرهاب. ولهذا قد يشعر المرء بأن اسم (الويلات المتحدة) أنسب لتلك الأمة المجرمة من (الولايات المتحدة).

ترى، هل يستحق نفط العراق هذا العناء كله وهذه الآلام الكبيرة التي يلحقونها بالناس، وكذلك بأنفسهم قبل كل شيء مع العلم بأنه سوف يتدفق طوال السنوات المائتين القادمة، كما يقولون؟ ما من شيء يسوّغ هذا الشقاء وهذه الجرائم، بل إن نفط العالم كله، عند الإنسان الطيب، لا يساوي نقطة دم بشري واحدة. ولكن أنى لهؤلاء القراصنة أن يستوعبوا هذا المذهب؟ إن شعباً جشعاً وأنانياً هو وحده الذي يفعل هذه الأفعال الشائنة التي من شأنها أن تجعل الإنسان الحساس يأنف من انتسابه إلى الجنس البشري، بل أن تثير فيه ميلاً إلى التقزز والاشمئزاز من الوجود بأسره. ولعل مما هو ضروري أن يشار ههنا إلى ضربة الحادي عشر من أيلول سنة ٢٠٠١م، وهي التي أدت إلى انهيار مبنى التجارة العالمي في مدينة نيويورك، وإلى مقتل ثلاثة آلاف كائن بشري، أو زهاء ذلك. وههنا لابد من التأكيد على أن العقل يملك أن يستشف الحقيقة من طبع الأحداث. فمما هو محال أن تتمكن أية مجموعة (إرهابية) من تسديد هذه الضربة، أو من إنجاز هذا الاختراق الأمني، دون مساعدة أحد من داخل أمريكا نفسها بل من داخل أجهزة السلطة الأمريكية حصراً. فليس ثمة شيء أسهل على اللبيب من رؤية المؤامرة التي أنجزت تلك الضربة. يقيناً، إن الأجهزة الأمنية الأمريكية هي التي دبرتها، وذلك لغاية في نفس يعقوب. أما الهدف فهو إعطاء الغربيين كلهم مسوّغاً للتدخل

العسكري في أفغانستان، حيث كانت هنالك حكومة لا يرضى عنها اليهود. وبإيجاز، إن ضربة أيلول تلك هي من باب السهر على أمن الغيتو الصهيوني.

إذن، جاءت حادثة نيويورك ذريعة لإزالة الدولة الإسلامية التي كانت تحكم أفغانستان. وهي الدولة الإسلامية الوحيدة في العالم. وهكذا دهموا أفغانستان بكل ما هو معهود عن الغربيين من همجية وإيغال في الشر. ويكفي أن يتذكر المرء قنابل الأطنان التسعة أو العشرة، كي يدرك المدى الذي قطعه الغربيون في معاداتهم للحياة البشرية وغير البشرية، وكذلك في ميلهم إلى إزالتها من الوجود.

****

ثم إن الدعم الهستيري الذي تقدمه الولايات المتحدة للغيتو الصهيوني، والذي لا يقل عن كونه تجسيداً للاعقلانية في الوجود، هو شيء لا مثيل له البتة في التاريخ البشري بأسره. ومن المحال أن يجد له الذهن تسويغاً بواسطة الزعم القائل بأن الغيتو يحرس المصالح الإمبريالية في المنطقة العربية. وهذه فكرة زائفة روّج لها المروّجون كثيراً بغية إيهام المواطنين الغربيين بأن الغيتو نافع لهم، وكذلك لكي يعلنوا التاريخ البشري الذي يندّعن كل عقلنة، إذ إن العقلانية المفرطة أو المتطرفة التي ازدهرت في العالم ابتداءً من ظهور منطق هيغل وحتى انهيار الإتحاد السوفيتي في العقد الأخير من القرن العشرين، والتي لا تترك ولو هامشاً ضيقاً لغير

العقلانية في فسحة الحياة الشاسعة، ليس من شيمتها إلا أن تجد سبباً منطقياً لكل ما هو واقع أو موجود، وذلك التزاماً منها بفكرة هيغل المشهورة: (كل ما هو واقعي عقلاني، وكل ما هو عقلاني واقعي.) وهذا يعني على نحو إضماري أن المذابح التي يتعرض لها الفلسطينيون يومياً هي من فصيلة العقل والعقلانية. فلكم هي تافهة هذه الفكرة، ولكم هو مغمى عليه كل من يؤمن بها. وما قالها إلا رجل جفت عواطفه وتجلطت نوازعه الإنسانية. يقيناً، إن تسعة أعشار الفلسفة الأوروبية لا تخرج من دائرة الهذاء، ولكننا من الببغاوية بحيث صدقنا كل ما قاله الغربيون، إذ أوهمونا، أو لعلنا أوهمنا أنفسنا، بأن من لا يؤمن ببحرانهم فإنه متخلف أو غبي.

إن هذا الدعم اللامحدود البالغ درجة الجنون والذي تقدمه الولايات المتحدة للغيتو الصهيوني، لا تفسره على نحو مقنع سوى حيازة اليهود لتلك الولايات نفسها، بل لجملة البلدان الناطقة باللغة الإنجليزية كلغة أولى. ولولا ذلك فلن يكون هنالك سبب يرغم الأمريكيين على تقديم جزء كبير من ثروتهم لسكان الغيتو الصهيوني، اللهم إلا حقدهم على العرب، وهو الحقد الموروث من أيام الحرب الصليبية، أو ربما اشتراكهم مع اليهود في تقديس ذلك الكتاب السقيم العقيم الذي يسمى العهد القديم.

ولا يجوز لمن يدرس المعضلة الفلسطينية أن يُغفل إسهام أوروبا الشرقية في دعم الغيتو الصهيوني وخاصة

روسيا التي أيدت قرار التقسيم سنة ١٩٤٧م كما قدمت هي وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا متطوعين وأسلحة للصهاينة في عام النكبة. بل إن تحمس السلطة الروسية لليهود في أواخر الأربعينات هو شأن يدعو للإستهجان. والعجيب أن لا تتمكن بولونيا التي اضطهدت كثيراً من استيعاء الدرس الإنساني جيداً بحيث تصير بلداً إنسانياً يناصر المعتدى عليهم ضد المعتدين.

وعند اللبيب أن موقف روسيا المساند لليهود يومئذ هو علامة انحطاط على جبين البلد الذي بناه بطرس الأكبر وكاترين الثانية. وما من أحد يعرف كيف تسلل اليهود إلى ذروة الهرم في موسكو وأسقطوا ذلك البلد الذي كان يحمل امكانات جلى تهدف إلى تحرير العالم. قال دستويفسكي في رواية له عنوانها (الشياطين) (م١، ج٢،ف٦، رقم ٥): (إن روسيا ليس لها مستقبل.) ولقد مضت مائة وثلاث وثلاثون سنة على نشر المجلد الأول من تلك الرواية. وما من سنة جديدة إلا وقد برهنت على صحة نبؤة دستويفسكي هذه. إن مجتمعاً يضع نفسه في خدمة اليهود هو مجتمع منحط جزماً. فليس من قبيل الصدفة أن ينتصر اليهودي في عصر السفلس والايدز. وفي قناعة كاتب هذه السطور أن أهم حقيقة ينبغي أن نعرفها عن الذهن البشري أنه يحوز القدرة الكافية على أن يرى اللامرئي انطلاقاً من المرئي، أو أن يعرف الغائب بواسطة التفرس في الحاضر، أو في المعطى. فلئن وصلت إلى أرض

ووجدتها خضراء ممرعة، فإنك سوف تكون على حق لا شبهة فيه إذا ما اعتقدت بأن تلك الأرض قد سبق لها أن تلقت كمية كبيرة من الماء بطريقة أو بأخرى، وإلا فإن من المحال أن يتمكن النبات من النمو على نحو خصيب. وأنت سوف تؤمن بهذه الحقيقة مع أنك لم تشاهد الماء وهو ينصبّ على الأرض. فلقد استخلصت الغائب من الحاضر دون أن يتطرق إليك الغلط بتاتاً. وهذا يعني أن كل ما هو واقعي لا يملك أن يستر ما وراءه من حقائق مخفية أو مكتومة وأن الذهن مالم يكن مصاباً بالذهان، لاتعوزه القدرة على استشفاف كنه الأشياء ومحضها، إذا ما استطاع أن يحضر إلى الحد الكافي.

وليسأل المرء نفسه: لماذا يقدّم الأمريكيون هذا الدعم الجنوني المنقطع النظير لليهود؟ (في أواخر شهر تشرين الثاني سنة ٢٠٠٤م، أعلنت الولايات المتحدة أنها تتعهد بتزويد الغيتو الصهيوني بالنفط طوال السنوات العشر القادمة). ولماذا سبق للإنجليز أن دعموا ذلك الغيتو نفسه وبالطريقة إياها؟ والإنجليز من الخبث والجشع والإفراط في عبادة المال بحيث لا يقيمون أيما وزن لأي شيء ما عدا مصالحهم الاقتصادية. فما هي الأرباح التي جناها الإنجليز، وكذلك الأمريكيون من جراء دعمهم المتطرف للصهاينة.

لا ريب في أن النفس الأورو- أمريكية زاخرة بحقد أسود معتق تريد إفراغه في العرب، عدوها المزمن

الذي استحال هذه الأيام إلى حطام بعدما اختل التوازن بين الشرق والغرب. ولكن هذا الحقد لا يكفي لتفسير هذه الظاهرة التي لا مثيل لها في التاريخ، أعني هذا الدعم الهستيري الذي يقدمه الغربيون لليهود. فلا بد من سبب آخر أكبر من هذا السبب. إنه هيمنة اليهود على الأوروبيين، وكذلك على الأمريكيين، أو أقله على الولايات المتحدة. ويبدو أن تلك الولايات في قبضة اليهود مثل عنق طائر أطبق عليه فخ من فولاذ.

ومما هو شديد الوضوح أن اليهود يربون الإنسان في أوروبا وأمريكا (إن كان هنالك إنسان في تلك الآفاق) وهم يربونه التربية التي تخدم مقاصدهم و مصالحهم. ومن تجرأ من قادة الغربيين على تحدي اليهود أو رفض أوامرهم فإن مصيره الموت الزؤام. وينطبق هذا المذهب على قادة العرب أيضاً. ومقتل الرئيس الأمريكي جون كندي أمر معروف، كما أن السبب في مقتل وزيرة الخارجية السويدية منذ مدة وجيزة، وفي رابعة النهار لا يخفى على أحد. وإن مصير أي رئيس أمريكي سوف يكون مثل مصير كندي، إذ ما رفض أن ينفذ ما يطلبه منه اليهود، ولا سيما الهجوم على العرب متى لزم الأمر. وفضلاً عن ذلك، فإن الرئيس الأمريكي، كائناً من كان، لا يحل ولا يربط، ولا وظيفة له تقريباً إلا أن ينفذ أوامر اليهود.

أليس للعقل أن يتساءل عن السبب الذي جعل الأمريكيين يصرون على تدمير العراق. فما السبب، يا ترى؟ النفط؟ إنهم ينهبونه بغير حرب. فلماذا الحرب

إذن؟ لا بد أن يتعلق الأمر باليهود، أو بالغيتو الصهيوني حصراً. فإما أن الأمريكيين، إذ يدمرون العراق إنما يدمرون قلعة عربية تنطوي على مضمرات خطيرة تتهدد الغيتو الصهيوني في المستقبل البعيد، وإما أن اليهود يريدون أن يثأروا من العراق الذي دمر الدويلتين المزعومتين والموصوفتين في التوراة، وسبى اليهود إلى آشور ثم إلى بابل. ويبدو أنه قد آن الأوان لتصفية الحساب، فاليهودي من الخبث واللؤم بحيث لا ينسى ولا يسامح. وقد يصح الظن بأن هذه الهجمة اللئيمة تنبثق من هذين الدافعين كليهما في آن واحد.

إذن، لعل في ميسور المرء أن يعرّف الكائن الاورو- أمريكي بأنه الموجود من أجل اليهود. والغريب أن ذلك الكائن لا يعرف هذه الحقيقة الناصعة، كما أنه لا يخجل منها إذا ما عرفها أو اقتنع بصحتها. فمن عرف الغربيين من برهة الكثب، أو بالخبرة العملية، أدرك أنهم متحمسون للغيتو الصهيوني أكثر مما هم متحمسون لبلدانهم. وهذا شأن غير مسبوق بتاتاً، بل انه أشبه بالعجائب والغرائب منه بالوقائع والممكنات. فلماذا التطرف في التحمس للأغيار؟ ولله في خلقه شؤون.

****

ولعل أهم ما في الأمر أن الأمُم الضعيفة لا أمل لها على المدى المرئي في الانتصار النهائي على اليهود، أو على أدواتهم الغربيين، وذلك لأن من شأن تلك الأدوات أن تتحالف مع جزء من المجتمع ضد جزء أخر. ولهذا يملك المرء كامل الحق في الحديث عن طبقة خائنة في

العالم العربي، وربما في جميع البلدان ذات الاقتصاد الهزيل. وقد يجوز الزعم بأن الخراب الذي أصاب العالم العربي الراهن لا سبب له سوى تهافت هذه الطبقة واستخذائها أمام اليهود وخدمهم الغربيين. وهذا شأن لا تخطئه العين مهما تك حسيرة أو كليلة، إذ لا يخفى على أحد، أياً كان، أن الحكومات في آسيا الغربية وإفريقيا الشمالية متحالفة مع الإمبريالية والصهيونية من باكستان حتى المغرب، ودون أي استثناء. وهذه حقيقة ناصعة نصوع الشمس في رأد الضحى. وهنالك تصريحان لوزير خارجية بريطانيا الحالي يؤكدان صحة هذه الحقيقة على نحو محسوم.

إذن، لا أمل للبلدان الفقيرة على المدى المنظور مادامت حكومات تلك البلدان تتآمر على شعوبها تآمراً معلناً لا يخفى البتة إلا على أهل الغياب. ولهذا، فإن الأحداث التي جرت في فلسطين والعراق، وكذلك في البلدان المجاورة لفلسطين طوال السنوات الستين الأخيرة، من شأنها أن تؤكد ما فحواه أن تاريخ العالم العربي في طوره الأخير، أو منذ حركة الشريف حسين سنة ١٩١٦م حتى اليوم، لا يتيسر استيعاؤه بشكل مقنع إلا بمقولة المؤامرة حصراً. وإذا ما حذف هذا الأساس فإن الحوادث تفلت من شبكة العقالة وتتناثر في الفراغ. أما أن الطبقة الخائنة تدافع عن مصالحها، فإن هذه الحقيقة لا تبطل صحة القول بالمؤامرة كمحور لا بد منه لتفسير التاريخ العربي المعاصر.

ولكن المرء لا يجوز له أن يغفل عن الوضع الداخلي بوصفه سبباً لما نعاني من آلام في هذه الأيام الكالحة. ويبدو أن الضعف ينادي المعتدين على نحو تلقائي، ويحرضهم على مهاجمة الضعفاء. وفي الحق أن علائم إتضاع البلدان العربية هي من الوقائع الشديدة الجلاء. إن ضياع فلسطين سنة ١٩٤٨م، وهزيمة حزيران سنة ١٩٦٧م، واتفاقيات الركوع أمام الصهاينة في أوسلو وسواها، واستيلاء الغربيين على العراق بيسر لا مثيل له سنة ٢٠٠٣م، وكذلك قيام الأنظمة العربية بتخريب المجتمعات العربية، بطريقة ممنهجة، وعن سابق عمد واصرار، وذلك امتثالاً لإرادة اليهود وأدواتهم الغربيين، إن تلك الأمور كلها هي بينات متساوية في دلالتها على أن المجال العربي قد لحق به الانحطاط منذ زمن بعيد. إن هذه الوقائع الخمس الكبرى هي مفتاح لتلميذ مدرسة ابتدائية يتيح له فرصة الدخول إلى فسحة الواقع العربي بأسره ويمكنه من استيعاب ما يجري حتى في حياته اليومية.

وربما جاز الزعم بأن العرب قد خرجوا نهائياً من التاريخ بسقوط الدولة المملوكية عام ١٥١٧م أو بعد طردهم من الأندلس بقليل. وهذا شأن طبيعي، بل هو طبيعي جداً، فمآل كل حياة إلى الموت، دون مراء. وهذي هي سنة الكون التي لا تقبل التبديل أبداً.

****

لقد استطاع الإدريسي أن يستنبط وجود القارة الأمريكية بواسطة العقل وحده، أو قل بواسطة التذهن والتفكير المنطقي، إذ اعتقد الرجل بأن من المحال أن تكون المساحة الفاصلة بين أوروبا وإفريقيا من جهتهما الغربية وبين الصين من جهتها الشرقية مغمورة بالماء كلها. فلو صحّ ذلك لاختل توازن الأرض وفقاً لرؤية الإدريسي نفسه. ولهذا، لابد من وجود اليابسة في منتصف الطريق بين الحدين. واستناداً إلى هذه الفطنة السديدة، وضع الرجل على مجسَّم الكرة الأرضية الذي صنعه أرضاً يابسة تشطر الماء إلى شطرين، أو إلى محيطين. وتلكم هي القارة الأمريكية التي اكتشفتها الرويّة والزكانة قبل أن تكتشفها التجربة. وبذلك استطاع العقل الناجي من داء الغيبوبة أن يرى بالبصيرة مالا يرى بالبصر، أو أن يستنبط الحقيقة بالتذهن بدلاً من الممارسة، أو أن يدرك اللامنظور بواسطة المنظور.

وبالطريقة نفسها يملك العقل أن يدرك المؤامرة، بل مسلسل المؤامرات الذي تم تنفيذه في العالم العربي طوال السنوات التسعين الأخيرة، وأن يرى الحكومات العربية المكتومة التي تحسم مصير البلدان العربية عبر التآمر مع اليهود وأدواتهم الغربيين.

إن هنالك ثلاث وقائع تاريخية من شأن كل منها أن تتحدى التفسير بغير مقولة المؤامرة. وهذه الأحداث الثلاثة هي كبرى الوقائع التي جرت في العالم العربي

منذ عام النكبة الفلسطينية حتى اليوم الراهن (بداية عام ٢٠٠٥م):

أولاً- في أيار سنة ١٩٤٨م، كانت الجيوش العربية قادرة على سحق الغيتو الصهيوني، ولكنها بدلاً من أن تدهمه وتسفحه بدداً، فإنها قد أبرمت معه اتفاقية هدنة لتمنحه فرصة كافية من أجل الحصول على السلاح اللازم للقتال. إن أدبيات الصهاينة قبل سواها تؤكد أنهم كانوا بغير أسلحة في ذلك الحين، أو إن سلاحهم كان خفيفاً جداً، بحيث لا يتمكنون من الصمود أمام جيوش أعدها الإنجليز لمواجهة الألمان. فجيوش مصر والعراق والأردن أنشئت لتنهض بتلك المهمة إذا وصل الألمان إلى مصر أو إلى الهلال الخصيب. ولكن الذي لا يعقل هو أن يعمل الإنجليز الملتزمون بوعد بلفور على إنشاء جيوش تلقي على نفسها مسؤولية القضاء على الغيتو الصهيوني وهو جنين لم يولد بعد. إنها جيوش يملكها الإنجليز، أو ربما كان يملكها مركز مالا يعرف له موقعاً إلا المطلون على مملكة الخفاء والاستتار، ومن غير المنطقي أن يسمح الإنجليز لتلك الجيوش بالقضاء على تجمع الصهاينة في فلسطين.

ثانياً- كان الجيش المصري قادراً على الدفاع عن صحراء سيناء سنة ١٩٦٧م ومع ذلك فقد انسحب أمام الصهاينة على نحو شائن ومعيب. ومن المعلوم أن انسحابه قد بلغ حتى الضفة الغربية لقناة السويس، ولكنه حين انسحب أمامهم سنة ١٩٥٦م فإن انسحابه قد توقف

عند الممرات، أي إلى الشرق من القناة بأكثر من عشرين كيلوا متراً، مع أنه كان يتعرض لهجوم آخر شنته بريطانيا وفرنسا من جهة بور سعيد.

ولا يدري المرء من هم الذين شكموا الجيش المصري، بل شلوه ومنعوه من القتال. ومما هو معروف أن المشير عبد الحكيم عامر، وهو أعلى سلطة عسكرية في مصر يومئذ، قد مات في ظرف غامض. وقيل انه انتحر ولكن أمره قد ظل غامضاً حتى هذا اليوم. ومما هو محتمل أن يكون ذلك الرجل قد اغتيل، مع أن انتحاره أمر احتمالي أيضاً. وربما كان سخطه على ما جرى بالفعل هو سبب انتحاره. ويجوز الظن بأن جمال عبد الناصر قد اغتيل هو الآخر. وليس هنالك من يملك أن يتحرى الحقيقة لأن هذه الأنظمة الاستبدادية قد كممت الأفواه وصادرت الحريات واستلبت الكرامة من نفوس المواطنين.

أما أتفه الأفكار على الإطلاق فهي تلك التي تزعم بأن العرب كانوا عاجزين عن القتال سواء في عام النكبة، أو في المناوشة الحزيرانية الشائنة. فلو صحت هذه الفكرة لعجز الذهن عن تفسير الهزائم التي مني بها جيش الصهاينة أمام الجيوش العربية في جميع المناوشات التي دارت على أرض فلسطين يومئذ.

لقد كان اليهود ينتصرون على الجيوش العربية في حالة واحدة فقط، وهي أن يهجموا بآلاف الجنود على قطعة عربية صغيرة جداً، كما حدث في المالكية يوم

أبادوا ثمانين جندياً لبنانياً كانوا يتخندقون على مشارف تلك القرية الفلسطينية المحاذية لحدود لبنان. وحدث حادث آخر مماثل يوم أحاط لواء مدرع صهيوني بمائة جندي سوري بجوار قرية الجَش التي هي إلى الغرب من مدينة صفد (المصدر الصهيوني يقول بأن الحادث قد جرى بجوار قرية سعسع القريبة من الجش). وأبيدت القطعة السورية عن بكرة أبيها.كما أن الصهاينة قد طردوا دون قتال سرية أردنية صغيرة جداً من مدينة الرملة التي هاجموها بآلاف الجنود. وأظن أن هذه هي جميع الانتصارات التي أحرزها الصهاينة على جيوش العرب في عام النكبة.

ففي صلب الحق أن اليهود ما كانوا يستولون على أية أرض، سواء عام ١٩٤٨م أو عام ١٩٦٧م إلا بعد تفريغها من أي جيش عربي، أو من أية قوة عسكرية موجودة فيها. ومن أجل رفع معنويات اليهود، ولا سيما أولئك الذين كانت الصهيونية تحثهم على المجيء إلى الغيتو، فقد أمرت الجيوش العربية، أو بعضها، بأن تترك أسلحتها في مكانها، وذلك لكي يستولي عليها الصهاينة فيحوزون على الأدلة المادية التي تبرهن على بطولتهم الطرزانية، كما تؤكد أن العرب لا يصلحون للقتال. وهكذا تم تزوير اليهود الجبناء، فظهروا بمظهر الصناديد القادرين على اجتراح المعجزات.

لقد كان العالم العربي مكتظاً بالجيوش، ولاسيما في الفترة الواقعة بين عام النكبة وبين العام الذي أبرمت فيه

اتفاقية داود سنة ١٩٧٩م ومع ذلك فإن معركة واحدة جديرة بأن تسمى معركة لم تحدث قط في أي مكان سواء في فلسطين أو عند حدودها. أما ما حدث بالفعل فلا يزيد عن كونه صدامات ومناوشات فقط. وهذا يعني أن العرب قد هزموا دون أن يقاتلوا، بل دون أن يسمح لهم بأن يقاتلوا. وفضلاً عن ذلك فإن الحرب ليس مسموحاً بها في منطقتنا هذه، وذلك لأن أية حرب فعلية سوف تفضي بالضرورة إلى زوال الغيتو الصهيوني حتى لو انتصر الصهاينة على العرب. أما الحقيقة المؤكدة فهي أن الجيوش العربية قد ربحت جميع المناوشات التي خاضتها ضد العدو الصهيوني سنة ١٩٤٨م ولاسيما تلك التي جرت في جنين والقدس ومحيط القدس.

ثالثاً- إن سقوط العراق في أيدي الأمركيين وحلفائهم على هذا النحو الشديد السهولة، والذي لم يسبق له مثيل من قبل، يتعذر تفسيره بغير مقولة المؤامرة. وليس بالضرورة أن تكون الحكومة العراقية حصراً هي التي تآمرت مع غزاة العراق، فربما كانت الحكومات كلها لا تحل ولا تربط، ولا سيما في العالم العربي الذي تتحكم به أجهزة اخطبوطية مستترة، وتقرر مصيره على نحو سلبي، حتى لقد صارت اللاحولية مثلبته الأولى. فمما هو جلي تمام الجلاء لكل من نجا من الغيبوبة أن العدو قد تسلل إلى جوف كل مدينة عربية على هيئة الحامية.

وما منع الناس من رؤية الحقيقة إلا افتقارهم إلى الحرية التي صادرها الطغاة.

ولئن قيل بأن الحكومات المرئية لا تحل ولا تربط. وأن الحكومات المستورة هي كل شيء، فهذا القول ليس تبرئة لأحد، إذا لجميع متورطون في وحول الخيانة حتى سمت الرأس. فلا ريب في أن الحكومات العراقية المتتالية، قد أسهمت كلها في تخريب العراق، بل راحت تدفعه باتجاه البرهة التاريخية الراهنة، أي برهة الكارثة والخراب التي لم يعرف العراق لها مثيلاً منذ أيام التتر الذين قادهم تيمورلنك، والذين دمروا بغداد مرتين (سنة ١٣٩٢م وسنة ١٤٠١م).

ومن قبيل الإغماء أن يظن المرء بأن الجيش العراقي الذي دهم الكويت سنة ١٩٩٠م قد فعل تلك الفعلة لأن قيادته غبية وتجهل أن أساطيل القراصنة الغربيين سوف تأتي وتطرد العراقيين من تلك الديار. يقيناً مادهم الجيش العراقي بلاد الكويت إلا كي يقدم للغربيين ذريعة كافية لتسديد ضربة ماحقة لهذا القطر المرشح لحيازة قوة استثنائية كفيلة بتغيير مسار التاريخ وذلك بفضل ما يحوزه من ثروات نفطية وغير نفطية. فالصراع لا تحكمه مثنوية الذكاء والغباء، بل مثنوية القوة والضعف حصراً. إنها مؤامرة هدفها ناصع جلي بيّن في ذاته، وهو تدمير العراق، بل تدمير العالم العربي الذي ينطوي على خطر مضمر يتهدد الغيتو الصهيوني، الذي لا يعيش ولا يستمر في الوجود إلا إذا

أحيط بالخراب من جميع الجهات بل على العالم الإسلامي سداة ولحمة، من اندونيسيا شرقاً وحتى المغرب غرباً، أن يخرب أو يتفكك، لكي يعيش الغيتو الصهيوني بأمان وهداة بال. وهذا يعني أن ثمنه باهظ بل جد باهظ حقاً. لقد دفع العرب مئات المليارات من الدولارات سنة ١٩٩١م كي يتدمر العراق. وقد أسفرت تلك الخسارة الفادحة عن أزمة اقتصادية عامة شملت العالم العربي بأسره، بل أدت إلى ركود في الاقتصاد العالمي كله. ولا مراء في أن اليهود وأدواتهم الغربيين لن يسمحوا للعرب بالخروج من هذه الأزمة في أي يوم من الأيام.

ثم إن سهولة سقوط العراق في أيدي غزاته القراصنة لا يملك العقل البتة أن يفسرها إلا بمقولة المؤامرة حصراً، ولئن كان الأمر خلاف ذلك، فلماذا أحجم الجيش العراقي عن الدفاع أو المواجهة، بل لماذا تلاشى حتى كأنه لم يكن؟ أقول مؤامرة لأن الحال لا يسعه أن يكون إلا على هذا النحو حتماً، بل إن من المحال أن لا تكون هنالك مؤامرة كبيرة جداً، وهي من الوضوح بحيث يتعذر إخفاؤها. أما أسخف الأفكار فهي تلك التي تقول بأن الجيش العراقي عاجز عن القتال. وهذه فكرة تذكر بما قيل سنة ١٩٦٧م.

ومن المؤكد أن الإمبريالية كانت تبيّت للعراق ضربة حاطمة منذ خمسين سنة. وقد سموها (الضربة الإستباقية) ولكن يجوز أن تسمى الضربة الإستئصالية

أو الإجتثاثية، أي تلك التي تدمره قبل أن يستفحل وتتفاقم خطورته. ولقد صرّحت تاتشر، رئيسة وزراء بريطانيا سنة ١٩٩٠م بأن الغربيين سوف يسددون للعراق ضربة لن يبرأ منها قبل مائتي سنة، إذن لماذا جيء بالجيوش العربية إلى فلسطين في عام النكبة دون أن تكون لديها أوامر بالهجوم، مع إعطائها أوامر بالدفاع عن مواقعها وحسب؟ في الحق أن ثمة جملة من الأهداف المقصودة من وراء ذلك الفعل اللئيم:

أولاً- إن دخول تلك الجيوش إلى بلادنا قد أعطى الصهيونية ستاراً يستترون وراءه فيما يخص اللاجئين الذين طردوا من بلادهم بواسطة المجازر وقوة السلاح. فلقد زعم الصهاينة بأن الحرب هي التي شردتهم، مع أنه لا وجود لأية حرب على الحقيقة، وإنما هي مناوشات صغيرة وصدامات طفيفة الشأن كان أكبرها ذلك الصدام الذي دار في جنين بين الجيش العراقي والصهاينة وأسفر عن هزيمة منكرة للعدو. وتبدت خسارة الصهاينة جسيمة حين كدس الجنود العراقيون جثث اليهود على هيئة أكداس كبيرة شاهدها آلاف الناس يومئذ. وقد اعترفت إذاعة الصهاينة بألف ومائتي إصابة بين قتيل وجريح.

ثانياً- كان من شأن النصر المزوّر الذي أحرزته الصهيونية على تلك الجيوش التي لا أوامر لديها بالهجوم أن شجع يهود العالم على القدوم إلى الغيتو. كما أن ذلك النصر قد رفع معنويات اليهود وحطم معنويات

العرب، ودفعهم إلى اليأس من إمكانية الانتصار على اليهود الذين يدعمهم الغربيون والشرقيون معاً.

ثالثاً- إن دخول سبع جيوش عربية إلى أرض الغيتو الذي اعترفت به الأمم المتحدة وجعلته عضواً فيها، من شأنه أن يظهر الصهاينة وكأنهم معتدي عليهم. وهذا أمر من شأنه أن يحرض الدنيا على أن تتعاطف معهم وتتهال عليهم بالمساعدات، وتنسى أنهم قتلة ولصوص شردوا شعباً وطردوه من دياره وسرقوا أرضه في رابعة النهار.

رابعاً- لقد أفضى مسلسل الهزائم الذي مني به العالم العربي، والذي دشنته هزيمة عام النكبة، إلى إقناع الإنسان العربي بالقبول بالأمر الواقع والرضى بوجود الغيتو الصهيوني على أرض فلسطين المغتصبة والمناداة الصريحة بالسلام مع ذلك الغيتو الشاذ الذي زرع في منطقة لا تخصه ولا يخصها.

يقيناً إن إدخال الجيوش العربية إلى فلسطين في عام النكبة، وذلك ابتغاء القيام بتمثيلية هي من فصيلة المأساة ـ الملهاة، لهو واحد من أخبث الأفعال التي فعلها البشر طوال تاريخهم.

****

هنالك في الواقع العربي جماعات سياسية تردد أقوال اليهود. ومن عادة هذه التنظيمات أن تنفي مقولة المؤامرة، وتزعم بأن التاريخ لا يقبل التفسير البوليسي

أو هو لا يقبل إلا التفسير المادي وحده. ولقد فات أولئك الأدعياء أمران يتعلقان بالتاريخ. أما الأول فهو أنه يقبل ألف تفسير وتفسير، بل إنه أعقد من أن يعنو لأي تفسير مهما يك نوعه. وأما الثاني فهو أن هنالك مؤامرة لأن هنالك ثروات اقتصادية وفيرة. وهذا يعني أن التفسير المادي للتاريخ يظل قائماً حتى في حال استيعاب الأحداث بوصفها نتاجاً مباشراً لمؤامرة كبرى.

ولا بد من الاعتراف بان الذين يرفضون مقولة المؤامرة معذورون تماماً، وذلك لأن العقل البشري لا يسهل عليه أن يتصور كيف أجمع أكثر من نصف الدنيا على أن يضع نفسه تحت أوامر اليهود ابتغاء إنشاء صنف من أصناف الغيتو يعيشون فيه إلى أن يأذن التاريخ بزواله. فمما هو مؤكد أن ما يبنيه التاريخ يهدمه التاريخ حتماً.

إن الذي يجري هو شأن مذهل حقاً، لأنه يشبه المحال. ولكن أليس مما يشبه التخريف أن تجيء قطعات عسكرية إلى العراق من الحافة الشرقية لآسيا أي من بلدان لا تربطها بالتوراة أية رابطة تاريخية قديمة، وذلك ابتغاء السهر على أمن الغيتو الصهيوني؟ ولئن لم يكن هذا السهر حصراً هو الهدف النهائي لتلك القطعات العسكرية، فهل هنالك من يملك أن يبرهن على أن سنغافورة وتايلند لهما مصالح اقتصادية في العراق فأرسلتا جنوداً لحماية تلك المصالح؟

ومما هو بديهي تماماً أن مقولة المؤامرة من شأنها أن تنفي عن الصهيوني صفة البطولة التي أضفتها عليه المؤامرة زوراً وبهتاناً. فالصهيوني الطرزان، أو الشمشوني القامة، قد هزم سبعة جيوش عربية سنة ١٩٤٨م على الرغم من أن ثلاثة من تلك الجيوش كان الإنجليز قد أعدوها في الثلاثينات لمواجهة الألمان. ثم عاد شمشون الجبار وهزم ثلاثة جيوش عربية سنة ١٩٦٧م على الرغم من السلاح السوفياتي الكثير الذي حصل عليه جيشان عربيان من تلك الجيوش الثلاثة. ومن الغرائب والعجائب أن الصهاينة لم يخسروا في تلك المناوشة الحزيرانية سوى ٧٧٧ جندي، وذلك وفقاً لمصادرهم نفسها، ولكنهم ربحوا بالمقابل أرضاً مساحتها تزيد عن مساحة الغيتو بثلاث مرات.

فأية بطولة تبقى للسيد شايلك الذي يهاجم جيوشاً ليست لديها أوامر بالهجوم بتاتاً، بل هو يهاجم جيوشاً تتآمر عليها حكوماتها وتسلمها لعدوها تسليم اليد؟ فبينما تنتصر الأمم بشجاعة رجالها وحنكة قادتها، فإن اليهودي هو الوحيد الذي لا ينتصر إلا بمؤامرة عالمية يشترك فيها الشرق والغرب. ولهذا حبذا لو أقدم أحد الكتاب على تأليف مسرحية عنوانها (انتصار شايلك) ليبين النصر الخلب أو الزائف الذي أحرزه اليهود على العرب في الطور الأخير من أطوار التاريخ.

ولكن ما هو شديد الأهمية ههنا أن التنظيمات السياسية العربية التي تخدم الصهيونية دون أن تدري

(وربما هي تدري) قد راحت تهاجم مقولة المؤامرة وتسفهها وتسفه القائلين بها، وذلك حفظاً لقيمة اليهود المزورة، وهم الذين أظهرتهم المؤامرة وكأنهم فرسان صناديد، مع أن شعبنا الفلسطيني يعلم علم اليقين أن اليهودي لا يصلح للقتال. ومما هو معروف أننا كنا نسميهم (أبناء الميتة)، وذلك بسبب شدة جبنهم وذلهم ووضاعة شأنهم.

لقد كان اليهود في أمس الحاجة إلى انتصارات لأن معنوياتهم كانت هابطة طوال التاريخ، ولأن انتصار الصهاينة على الجيوش العربية سنة ١٩٤٨م وكذلك سنة ١٩٦٧م قد شجع يهود الأرض على المجيء إلى فلسطين. فابتغاء تعزيز ثقة اليهودي بنفسه، كان لابد من إلحاق سلسلة من الهزائم بالجيوش العربية التي يتآمر عليها قادتها جهرة، أو على نحو لا يخفى. إن مسلسل الهزائم التي لحقت بالجيوش العربية هو الذي جلب يهود العالم إلى فلسطين. وبذلك وحده صار الغيتو الصهيوني أمراً ممكناً، بل صار واقعاً يملي حضوره على العالم كله. وعلى ضوء هذه الحقيقة يملك المرء أن يعرف غاية هذه المؤامرة.

وأخيراً، هذه هي الإنسانية، قويها يفترس ضعيفها بأبشع الطرائق وأكثرها همجية ونذالة معاً، ودون أي شعور بالخجل أو بالتبكيت. وهذه حقيقة من شأنها أن تدفع الذهن إلى التشديد على أهمية هذا السؤال: لماذا لم

ينضج الإنسان بعد؟ أو قل: لماذا لم يستطيع أن يصير إنساناً، مع أنه يتطور منذ مئات القرون؟

يقيناً، إن الحضارة لن تستحق أن تسمى بهذا الاسم نفسه إلا إذا استطاعت أن تجعل من الإنسان أخاً للإنسان، بدلاً من كونه ذئباً يفترسه متى شاء. ولكن هذا الطور الفاتن لن يجيء إلا إذا استطاعت الحضارة أن تخلص البشر من المال وعبادة المال، أو من الأنانية ومن إغفال آخرية الآخر الذي ينبغي التعامل معه بوصفه غاية وليس وسيلة. فلا يجوز التغاضي عن قيمته ولا عن كونه الهدف النهائي لكل نشاط إنساني وهذا يعني أن يكون شعار القوى الفاعلة في التاريخ أن كل فرد يحق له أن تصان كرامته وحريته ونبل هويته.

ويبدو أن القدر العلمي للبشر أن يكون بعضهم لبعض عدواً لدوداً، وأن يتقاتلوا على نحو يجهل الرحمة و العقلانية، مع أن الإنسان لا يصير إنساناً الإبمقدار ما هو إخائي أو حميم. يقول غوته: (علمني هومرس أن علينا أن نصنع جحيماً في الأرض).

****

الفصل الثاني

شذوذ الغيتو الصهيوني

صادق في ذهني أن اليهود آفة من آفات التاريخ، بل داء أصاب الجنس البشري الآخذ بالا تضاع في هذا الزمن الماحل، وذلك بفعل الجشع الذي يمارسه أولئك الأشرار الذين يريدون أن يلتهموا العالم بأسره، ولكن دون أن يعترضهم أحد بتاتاً. فلكم هي شاذة تلك العقيدة التي تزعم بأن الله (سبحانه) قد اختار شعباً محدداً اتخذه له خديناً حميماً، حتى لكأن الحي القيوم لا عمل له سوى أن يخدم تلك الشخصية ذات الذهن المعطوب. وفي ميسور المرء أن يؤكد على أن الغيتو الصهيوني، قد تخارج من هذا الشذوذ نفسه، فجاء شاذاً هو الآخر، شأنه في ذلك شأن الشخصية اليهودية التي صاغته على صورتها تماماً.

أما الشذوذ الأعظم فهو أن يترك البشر مألوف عادتهم في التعاطف مع الضحية ضد الجلاد، وذلك انسجاماً مع فطرتهم التي فطروا عليها، وأن يعكسوا الإتجاه ليقفوا مع الجلاد ضد الضحية في المأساة التي يعيشها الفلسطينيون منذ مائة سنة تقريباً. يقيناً، إن ما

يجري هو شأن مذهل تماماً بمقدار ما هو مثير للتقزز. فما على الإنسان الفلسطيني إلا أن يُقتل، ويهدم بيته على رؤوس من فيه، وأن تقتلع أشجار حقله في وضح النهار، ولئن اعترض فهو إرهابي يستحق الموت فوراً. وعند ذاك يقف الغربيون أدوات اليهود، ليرددوا في جوقة واحدة (على الفلسطينيين أن يوقفوا إرهابهم). ولكم أجاد أحد الشعراء الفلسطينيين حين قال:

لا تلجأن، إذا ظلمت، لمنطق
فهناك أضيع ما يكون المنطق.

ومن الأدلة على تفاهة الشخصية الصهيونية وشذوذها أن تجيء انتصاراتها في عصر السفلس والإيدز، أي بعدما سوّست المجتمعات البشرية بأسرها. ومما لا يملك الذهن أن يفسره لشدة شذوذه أن هذا اليهودي الجبان الذي لا يصلح للقتال بتاتاً، قد انتصر بغير قتال، وأنه إذا احتدم العراك مهزوم، لا محالة ومع ذلك فإنه يكسب أرضاً جديدة، سواء كان غالباً أو مغلوباً.

ويمكن للمرء أن يراجع مذكرات بن غوريون وهو أول رئيس للغيتو الصهيوني، أو تحديداً ذلك الجزء المخصص لعام النكبة، كي يراه يتحدث صراحة عن فرار الجنود الصهاينة من الجيش فراراً نهائياً، وبأعداد كبيرة، مع أن القتال يومئذ لم يزد عن كونه مجرد صدامات ومناوشات طفيفة الشأن. ومن المفارقات أن ذلك الإرهابي السقيم، الذي يتحدث عن فرار جنوده من

ساحات القتال، يحوّل نفسه الحق في الادعاء بأن الفرد الصهيوني يضحّي بحياته مؤمناً بأنه يموت لكي تبقى الجماعة من بعده، وبأن هذه حالة لا يملك الإنسان العربي أن يستوعبها بتاتاً. فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

****

ربما جاز القول بأن سيلين، الروائي الفرنسي المشهور قد حالفه السداد حين وصف اليهودي بأنه (قملة سامة... وطرح عرقي، بل كتلة كابوسية من القذر والخبث، من الجشع والذكاء الماحل العقيم). ولو لم يكن اليهودي هو اللؤم مجسّداً لما ألحق بالفلسطيني تلك الكارثة الشديدة القسوة التي لا يصنع مثلها أحد سوى اليهودي وحده. ولهذا، يجوز القول بأن الشخصية اليهودية مختلة في صميمها، بل إن موتاً أبدياً يربض في نواتها حصراً. ولولا ذلك لما فعلت تلك الفعلة الشنيعة النكراء. ومما هو مذهل حقاً أن العالم لا يستوعب، ولا يريد أن يستوعب، حجم المصيبة التي أنزلها اليهود وأدواتهم الغربيون بالفلسطينيين.

ومن صفات اليهودي الشاذة أنه يأتي من كل مكان في الدنيا، ولكنه لا ينتمي إلى أي مكان قط، بل هو لا ينتمي إلى أي شيء آخر سوى المال وحده. فحيثما كان المال كان اليهودي. وإن نسبة حضوره تتناسب طرداً مع نسبة حضور المال. وهو يزعم أنه يريد (أرض أجداده)، أي أن أزمته هي أزمة مكان، ولكنه في كنه

أمره لا يبتغي شيئاً سوى حصة كبيرة من نفط العرب. فلو لم يكن هنالك نفط غزير جداً في بلاد العرب، لما قيض للغيتو الصهيوني أن يعرف دربه إلى الوجود. صحيح أن فكرة الغيتو قد نبعت من التوراة حصراً، إذ لو لم تكن هنالك توراة لما كان للغيتو أن يتحقق، ولكن الفكرة تحتاج إلى الوسائل المادية ابتغاء إنجازها، فجاء نفط العرب ليقدم للصهاينة كل ما يحتاجونه من لوازم. ولهذا، يصر اليهودي البولوني، أو الروسي، أو الأكراني، على أن أجداده قد جاؤوا من فلسطين قبل آلاف السنين.

ومما هو جد واضح أن اليهودي لا يفكر إلا بما يملك أن يحصله من أي شيء مادي في هذا العالم الساقط على نحو نهائي لا رجعة عنهُ بتاتاً. فلكي يبتز اليهود ألمانيا، راحوا يختلقون الأكاذيب ويزعمون أن هتلر قد أباد منهم ستة ملايين (لاحظ ولعهم بهذا الرقم الذي انتحلوه من الثقافة البابلية). ولو قتل منهم مثل هذا العدد الضخم لنبشوا القبور إثر انتهاء الحرب، ولا قنعوا جميع الناس بأن الحادث قد حدث بالفعل. ولكنها أكذوبة لا يصدقها سوى أولئك الغربيين المعتوهين الذين يصدقون اليهود حتى لو قالوا لهم أن اللبن أسود. وهي أكذوبة هدفها ناصع كالشمس في رأد الضحى. إنهم يبتغون أن يضاعفوا ثروتهم مما يبتزونه من الألمان على هيئة تعويضات. كما أنهم قد كسبوا عطف الكثير من الشعوب بواسطة تلك الأكذوبة الكالحة الربداء.

لقد استطاع الغربيون، الذين يملكهم اليهود دون أن يعلموا، والذين لهم نفوذ في العالم العربي لا مثيل له في التاريخ بتاتاً، استطاعوا أن يزوروا الصهاينة الجبناء الذين لا يصلحون للقتال بأي حال من الأحوال، وأن يقدموهم بوصفهم أبطالاً صناديد. ولهذا راح آرثر كوستلر، وهو كاتب صهيوني مشهور، يتحدث بصفاقة عن (طرزانات عبرانية)، مع أن كتيبة واحدة من كتائب الجيش العراقي قد كدست جثث قتلاهم في جنين اكداساً، ومع أن إذاعتهم قد اعترفت يومئذ بألف ومائتي إصابة نزلت بجيشهم المهزوم. وهنالك حادثة يعرفها القاصي والداني ممن عاصروا النكبة، وهي الهزيمة التي مني بها جيشهم في لوبيا الواقعة إلى الغرب من مدينة طبريا. لقد هزمتهم بضع مئات من الفلاحين الفلسطينيين المسلحين ببنادق غالبيتها صدئة وقليلة الذخيرة. فلقد كانوا ألفاً وخمسمائة جندي، تصدى لهم مالا يزيد عن ثلث هذا العدد من الناس الذين يجهلون كيفية الحرب. ودحر الصهاينة باتجاه الشرق والجنوب مخلفين آليتين خفيفتين، وبعض الأسلحة والعتاد الحربي وأربعاً وسبعين جثة. والجدير بالتنويه أن لهم قدرة نادرة على إخلاء أرض المعركة من القتلى والجرحى. (إن كاتب هذه السطور قد عاصر هذا الحادث). ومن شذوذ التاريخ الحديث أن تهزمهم قرية وان يهزموا سبعة جيوش عربية.

****

ولكن أهم ما في أمر الغيتو الصهيوني أنه قد بدأ بداية شاذة تشبهها كثيراً بداية وجود الأوربيين في الأمركتين. فالصهاينة قد جزروا الفلسطينيين واستولوا على أرضهم وطردوهم من ديارهم وشردوهم تحت كل سماء وجعلوهم لا جئين طوال السنوات السبع والخمسين الأخيرة. ومع ذلك فإن الفلسطيني مطالب بأن يرقص ويغني لأن (أبناء الله) عادوا إلى (أرض أجدادهم). وأغلب الظن أن هذه البداية الشاذة سوف تكون السبب الوحيد الذي قد يفضي إلى زوال الغيتو من الوجود ولو بعد ألف سنة.

ولكي لا تهتز صورة اليهود في نظر الرأي العام العالمي، فقد راحوا يزورون الحقائق ويزعمون بأن الحرب هي التي شردت الفلسطينيين وليس المجازر التي ارتكبها الصهاينة. يقيناً، إن اليهود سادة الكذب منذ أقدم عصورهم وحتى يوم الناس هذا. فلم تكن هنالك حرب البتة، بل لعل في ميسور المرء أن يؤكد ما فحواه أن حدوث أية حرب هو شأن ممنوع في منطقتنا، لأن الحرب قد تضع حداً لوجود الغيتو الصهيوني، حتى لو انتصر الصهاينة على العرب، إذ أن سكان الغيتو سوف يفرون منه إذا ما نشبت أية معركة طاحنة. وبالبداهة يتعذر عليهم أن ينتصروا على العرب بغير مساعدة الغربيين. ولهذا، قد يجوز للمرء أن يعرّف الإنسان الأورو- أمريكي بأنه الموجود من أجل اليهود.

وعلى أية حال، لا بد لمن يدرس المعضلة الفلسطينية بنزاهة وحياد موضوعي من أن يطرح هذا السؤال: لماذا ارتكب الصهاينة مسلسل المجازر عام النكبة، ولا سيما مجزرة دير ياسين التي يعرفها العالم بأسره؟ إن بن غوريون يعترف في مذكراته بأن الصهاينة قد ارتكبوا مجازر دامية في شمال فلسطين وفي جنوبها. ومنذ فترة وجيزة اكتشف أحد الدارسين الصهاينة مجزرة الطنطورة والمقبرة الجماعية التي دفنوا فيها القتلى سنة ١٩٤٨م.

ومما ينبغي أن يعرفه المرء أن اليهود، ورثة الهمجية التوراتية، مولعون أيما ولع بدماء النساء والأطفال، كما أن لهم هواية ومتعة بتمزيق بطون الحوامل واستخراج الأجنة من داخلها، حتى لكأنهم يرغبون في سحق بذور الحياة البشرية وبتر جذورها. وهاهنا لابد من التذكير بان مثل هذه الأفعال الإجرامية من شأنها أن تتجانس تمام التجانس مع ماهية التوراة أكثر الكتب شذوذاً في هذا العالم، لأنها منسوجة من اللؤم والحقد والظلام. فمن المؤكد أن الهمجية التوراتية قد أخذت بالتفجر ابتداءً من شهر آذار سنة ١٩٤٨م وذلك على نحو لم يعرف منذ أيام المكابيين، إذ من المعلوم أن الناس قد كانوا يجزرون اليهود، أما اليوم في هذا الزمن اليرقاني، فإن اليهود قد صاروا يجزرون الناس ويقتلعونهم من ديارهم ويشردونهم تحت كل سماء، ثم يزعمون أن الحرب هي التي شردتهم.

إن اليهود مختصون بالكذب ومكرسون له. ولكنه كذب لا يخفى على أي عاقل بتاتاً.

ثم إن هنالك سؤالاً يملك أن يصفعهم على وجوههم: لماذا لم يسمحوا للاجئين بالعودة إلى ديارهم بعد انتهاء الحرب المزعومة؟ ومن المعلوم أن الأمم المتحدة قد أصدرت قراراً بعودة اللاجئين، وذلك في أواخر سنة ١٩٤٨م، ولكن الغيتو لم ينفذ ذلك القرار حتى اليوم. فليس بخاف على أي عاقل نزيه أن الصهاينة قد طردوا الفلسطينيين من ديارهم لأنهم يريدون الأرض خالية من الناس، وذلك ابتغاء استيراد اليهود إليها من جميع أرجاء العالم. فالإقليم ضيق ولا يتسع للطرفين كليهما، وحتى لو كان واسعاً، فإن الصهاينة يريدون بلداً أغلبية سكانه من اليهود. ويبدو أنهم يتحملون أن تكون فيه أقلية لا تزيد عن سدس السكان. فهم مولعون بالستة التي قدستها بابل أيما تقديس.

****

واضح، إذن لكل من يبحث عن الحقيقة، وليس عن هواه الخاص، أن الغيتو الصهيوني شاذ إلى حد مذهل بل إن اليهودي كله ظاهرة مفعمة بالشذوذ أينما وجد. والغيتو ليس إلا نتاجاً لحركة رجعية ظلامية ومثيرة للاشمئزاز، إذ لا ريب في أنه رجعي، بل لا عقلاني ذاك الذي يريد أن يعود بالأوضاع إلى ما كانت عليه قبل ألفي سنة أو يزيد. فمنذ ابتداء أمر الغيتو لا يسع النزيه أن يراه إلا محاولة بائسة لبعث زمن منطفئ أو مندثر، أو لإحياء موت تم منذ أيام الرومان، إذ يبدو

أن قصة اليهود مع الرومان لا تخلو من صحة. لقد فات الصهاينة أن بعث الموت هو صنف من أصناف الموت. بل إن ثمة موتاً في صميم الشخصية اليهودية، ويملك المرء أن يستخلص هذه الحقيقة من أية قراءة مستأنية للتوراة المنسوجة من الضغائن والظلمات وأصناف الخساسة كافة. ومع ذلك، فقد استطاع أن يحرك التاريخ المعاصر أكثر مما فعلت الأسلحة النووية. يقيناً، إن ذلك الكتاب هو لطخة عار وشنار في جبين الجنس البشري بأسره. ومن الغرائب أن اليهود يحق لهم أن يتكلموا أو يتحدوا انطلاقاً من كتابهم المقدس، أما بقية أهل الأديان فسوف ينعتون بأنهم متشددون وأصوليون وإرهابيون إذا ما حاولوا أن يتحركوا ابتداء من كتبهم المقدسة.

وهو كتاب أترع بالزيف والكذب، بل إن الكذب أو التزوير هو الداء الذي يتعذر على اليهودي أن يبرأ منه حتى و لو بذل قصارى جهده.

يوسف وزير عند فرعون، إخوة يوسف جاؤوا إلى مصر عدة مرات، يعقوب والد يوسف قابل فرعون وباركه ومات في مصر، موسى ترعرع في قصر فرعون، قام فرعون بمطاردة قوم موسى حتى جوف البحر، سليمان تزوج ابنة فرعون، مهر ابنة فرعون قبل زفافها هو تدمير مدينة كنعانية، ومع ذلك فلا وجود لقصاصة من ورق البردي، أو لقطعة من الحجر، تملك أن تؤشر إلى أي حادث من هذه الحوادث.

فهل يستطيعون أن يبرهنوا على أنهم قد كان لهم أجداد عاشوا في تلك الأزمنة السحيقة؟

وليس غريباً أن يعجز اليهود وأدواتهم الغربيون عن إدراك ما فحواه أنهم ما أنشئوا سوى صنف من أصناف الغيتو (أو المعزل أو حارة اليهود) على أرض فلسطين التي افترسوها بمؤامرة عالمية اشتركت فيها حكومات لا تحصى ولا تعد. فلقد أعماهم النهم عن رؤية الحقيقة، ولاسيما عن إدراك معنى التعاسة التي صنعوها لأنفسهم قبل سواهم، وكذلك للعرب، وبخاصة لأهل فلسطين. ففي الحق أنهم اقتعلوا أغرب معضلة في تاريخ الجنس البشري كله، تماماً كما يفعل الطفل النكد الذي يختلق المنغصات من تحت رجليه. ولا ريب في أن معضلة كهذه لا يفتعلها سوى اليهود المتطرفين في الشذوذ. فلقد صنعوا شقاء لا حد له من أجل ذلك الغيتو الطفيف الشأن، بل الذي لا يعني أيما شيء ذي بال لأي عاقل معافى، حتى وإن كان يهودياً.

وللمرء أن يلاحظ هوية العصر الذي انتصر فيه اليهود. إنه عصر شاذ برمته. فهو عصر الحروب العالمية والأسلحة النووية، وكذلك عصر استشراء الشرور واستفحال سلطة المال وانهيار الأخلاق والأديان. ومن المحال أن يكون لليهود جيش إلا في عصر السفلس والإيدز، إذ لا يملك الخيال أن يتخيل جيشاً لليهود الربويين في أي زمن من أزمنة الفروسية القديمة، مالم يكن ذلك خبزاً مزوراً مثل خبز شمشون

الذي قتل ألف فلسطيني بفك حمار، كما تزعم التوراة. لقد انحط الجنس البشري كله منذ تفجر البخار في أواخر القرن الثامن عشر، وازداد انحطاطاً منذ تعميم الكهرباء في أواخر القرن التالي، إذ لا ريب في أن الصناعة المتطورة هي أمارة من أمارات الاكتهال، بل الاتضاع.

وهذا يعني أن انتصار اليهودي لا بد له من أن تشرطه هزيمة الإنسان على نحو مسبق. فما لم ينحط الجنس البشري كله، فإن غيتو اليهود في فلسطين لا يتيسر له أن يعرف دربه إلى الوجود. ولكن الأهم من ذلك هو انحطاط العالم العربي قبل سواه. إن مقولة المؤامرة وحدها لا تكفي لتفسير ما يعانيه العرب من تمرغ في وحل الامتهان والذل، إذ لا يفسر ذلك كله سوى انحطاط الشخصية العربية وخروجها من التاريخ منذ زمن طويل. ترى، هل كتبت الذلة والمسكنة على العرب وليس على اليهود؟ ومع ذلك، يبقى انتصار الغيتو حادثاً شاذاً في زمن شاذ.

ثم إن للمرء أن يطرح هذا السؤال: هل من مجتمع في الدنيا يكرهه جميع جيرانه ويتمنون زواله سوى هذا الغيتو المصطنع؟ وهل من دولة قد نشأت على الأرض بوعد من أي وزير مهما تك جنسيته، وكذلك بقرار من تلك المزبلة الإمبريالية التي تسمى الأمم المتحدة؟ أما سكان الغيتو فقد جيء بهم من ثلاثة وثمانين إقليماً. وشرط المجيء أن يكون القادم يهودياً وحسب. وهذا دليل على أنه تجمع رجعي في الصميم. ومما يقبله

الشرفاء أن إنساناً يحترم نفسه لا يرضى بأن يعيش في مجتمع يكرهه جيرانه، ويؤتى بمواطنيه على أساس طائفي مقيت.

ثم إن لك أن تتساءل: لماذا يحق لليهود أن يؤسسوا مجتمعاً في فلسطين، بينما لا يتمتع المسيحيون بهذا الحق إياه، مع أن مجتمعاً مسيحياً في فلسطين قد كان هدفاً للمشروع الصليبي طوال مائتي سنة؟ ألم تُنشأ المسيحية على أرض فلسطين بكل تأكيد، بينما لا يملك أحد أيما دليل على أن اليهودية قد نشأت في ذلك الإقليم المنكوب نفسه؟ يقيناً، ما من أحد يعرف أين نشأت الديانة اليهودية ولا متى نشأت. وما من دليل بتاتاً على أن فلسطين قد عرفت أي دولة يهودية في أي يوم من الأيام. وتذكر توراتهم (سفر التكوين، الإصحاح الرابع عشر) أن جدهم الأعلى المسمى إبراهيم، حين وصل إلى القدس، وجد الكنعانيين فيها، وأنها قد كان لها ملك كاهن يعبد الله العلي القدير، وأن ذلك الكاهن قد بارك إبراهيم وأحسن إليه. وهذا يعني أن الكنعانيين أقدم من اليهود في فلسطين، الأمر الذي تصرح به توراتهم التي هي مزيج من ترهات وأكاذيب (تكوين: ١٢، ٦). ومع ذلك فإن فلسطين في رأيهم، هي بلد اليهود الروس والبولونيين والأوكرانيين. إن يهودياً ولد في أي مكان على الأرض له الحق الكامل في التوطن داخل الغيتو الصهيوني، أما الفلسطيني الذي ولدفي فلسطين ثم طرد

منها، فلا يحق له البتة أن يعود إليها ولو زائراً. أليس هذا من العجائب، يا أصحاب العقول؟

فلكم هو شاذ وعجيب هذا الغيتو الصهيوني، بل إن المشروع الصهيوني هو شذوذ كله، ولا يسعه أن يستمر إلا بسبب لاعقلانية القوى التي تدعمه على نحو هستيري. ولا حرج إذا ما ذهب المرء إلى أن هذا المشروع نفسه منسوج من اللاعقلانية حصراً. فلقد ترك اليهود سهول أوروبا الشرقية المنداحة الواسعة، وكذلك أمطارها الغزيرة وأنهارها العملاقة (الدانوب واالفولغا والدنيبر والدنيستر) وجاؤوا إلى غزة ليزاحموا أهلها على رمالها الناشفة والمتشققة من شدة العطش. ولقد تم ذلك الجنون بذريعة مؤداها أن فلسطين هي الأرض التي اختارها يهوا لشعبه المختار. ففي رأيهم أن ذلك الإقليم ينبغي أن يظل فارغاً من الناس وأن ينتظرهم ريثما يصححون التاريخ. فهل هناك من شذوذ أكبر من هذا الشذوذ؟

لقد جاؤوا من جميع أرجاء الدنيا، لا يجمعهم سوى جامع واحد فقط، هو ذلك الكتاب الأسود الكالح الذي يسمى التوراة. ومع ذلك، فإن الرجعيين والأصوليين هم أعداء اليهود، وليس اليهود أنفسهم. ترى، كم هي صفة خرافية ولا عقلانية أن يكافح بعض الناس من أجل وعد الهي، ولا سيما في عصر العلم والتكنولوجيا؟ (لنسلك أعطي هذه الأرض)..

وللمرء أن يلاحظ المزيد من أشكال الشذوذ واللاعقلانية في بنية الغيتو الصهيوني. فلا يكفي أن يظل السكان مستنفرين ومشهرين لأسلحتهم على الدوام. وذلك ابتغاء بقائهم في فلسطين المحتلة، بل لابد من استنفار العالم كله وحشده من اليابان شرقاً إلى اليابان غرباً لكي يسهر على أمن ذلك الغيتو التافه نفسه. ولئن لم يتحقق هذان الشرطان، فإن كيان الصهاينة المصطنع سوف يتعرض للدمار. فليس أمام الصهيوني أي خيار سوى أن يمارس القتل يومياً أو أن يتلاشى إلى الأبد. فهل هنالك أي تجمع بشري آخر له هذه المثلبة، بل هذه المثالب كلها؟ وهل هناك مجتمع آخر يحتاج إلى حماية العالم بأسره، أو أقله حماية قواه العظمى، لكي يضمن استمراره في الوجود؟ وما مدى الشذوذ واللاعقلانية اللذين يجبران هذا الحشد الصهيوني على أن يظل مشهراً أسلحته دائماً، وأن يمارس القتل دون توقف، وأن تدعمه الكرة الأرضية من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي؟

أما الظاهرة التي لا بد لها من أن تستثير دهشة الإنسان الحساس فخلاصتها أن الغيتو الصهيوني الصغير الحجم، يملك جيشاً قوامه أكثر من نصف مليون جندي، حتى لكأنه آشور أو إسبارطة أو روما. ومن المؤكد أن هذا الجيش يعيش على حساب العالم العربي حصراً وتحديداً. إنهم، أقصد اليهود وأدواتهم الغربيين يخطفون اللقمة من أفواه أطفالنا، وكل من عارضهم فهو

إرهابي ويستحق الموت. ولقد لاحظ بعض الناس أن المجتمع الطبيعي له جيش، أما الجيش الصهيوني فله مجتمع. ترى أليس مزاحاً من التاريخ أن يدجّج أولئك اليهود بهذا العبء الباهظ من الأسلحة التي ينوؤن تحتها، والتي تجعلهم يتبدون كالغلام الذي يرتدي عباءة جده. ولقد فاتهم أن روما نفسها، صاحبة الجيوش الجرارة، لم تستطيع أن تظل تحت السلاح إلا لحقبة من الزمن وحسب.

ومن المؤكد أن سكان الغيتو سوف يسترخون ذات يوم، إذ الاسترخاء داء لم ينج منه أي مجتمع، بما في ذلك المجتمعات السوية والطبيعية، فما بالك بهذا التجمع الصهيوني الشاذ؟ وماذا سوف يحل بسكان الغيتو يوم يسترخون، ويوم يسأم منهم الغربيون الذين ابتكروا مقولة السأم في الحياة الحديثة؟ فمن غير المعقول أن يظل الغربيون مجرد أدوات في أيدي اليهود إلى الأبد. وقد يملك المرء أن يجزم، إذا ما استفاد من الأسانيد التي يمكن لعلم التاريخ أن يقدمها للذهن المتأمل، بأن طور الاسترخاء آت لا ريب فيه، شأنه شأن الشيخوخة التي لابد من مجيئها إلى كل كائن حي. وإذا ما استتب الاسترخاء صارت المجزرة قدراً محتوماً، بل قل بلغة عصرنا صارت (حتمية تاريخية) لابد منها ولا محيد عنها.

لقد دخل العرب الأندلس سنة ٧١١م، وطردوا منها سنة ١٤٩٢م، أي بعد زهاء ثمانية قرون من الصراع

الدامي المرير. ودخل الأتراك إلى أوروبا في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي، وطردوا منها في أوائل القرن العشرين. وهذا المصير نفسه هو مصير الصهاينة، بل كل كيان شاذ، دون أدنى ريب، حتى ولو بعد مئات السنين، إذ ما من قوة على الأرض إلا وهي على موعد مع الزوال. إن الأشياء مطلقة السراح حتى نهاية الشوط المخصص لكل منها وحسب، وعند ذاك يشكمها لجامها من داخلها، بل من نواة كل منها. وفي تلك البرهة الحاسمة لا بد للشيء من التوقف إلى الأبد. هكذا كان حال آشور وفرعون وروما.

وهاهي ذي أوروبا تشيخ على نحو ناصع أمام الخبير بمصير المجتمعات. إنها تشيخ على الرغم من الوحدة الأوروبية التي توهم بعض الناس بالقوة والشباب، مع أنها ليست سوى الهبّة التي يهبها السراج قبل أن ينطفىء بسبب نضوب زيته. ثم إنه ليس من قبيل المبالغة أن يقال بأن البشرية كلها قد شاخت لأنها استحالت إلى اقتصاد أو مال وغرائز جسدية، وما عادت الفنون والروحانيات تهمها كثيراً، كما لم يعد يهمها الدين والأخلاق النبيلة التي من شأنها أن تجعل الحياة ذات عذوبة ومذاق سائغ زكي.

ثم إن منطقتنا العربية قد هزمت الصليبيين، وهم فرسان حقيقيون باعتراف المؤرخين العرب، أي باعتراف أعدائهم. والفضل ما شهدت به الأعداء، كما يقول المثل السائر. فلئن كانت منطقتنا التي أسست

الحضارة البشرية وجعلت التاريخ ممكناً، بل التي اخترعت الإنسان واستخلصته من الوحش السابق على التاريخ، قد هزمت الصليبيين الصناديد، فما بالك بأولئك الصهاينة الذين لا يصلحون إلا للطعام والغرائز الجسدية؟ ولكم أصاب هيرا قليط حين قال: (أعدل الأشياء المعركة).

فليس من قبيل المحال أن يجلس اليهود من جديد على ضفاف أنهار بابل، وأن يذرفوا الدموع الغزيرة مثلما فعلوا من قبل. فالزمن مفتوح، وإغلاقه أمر متعذر أو محال. وهذه حقيقة ليست في صالح السيد شايلك. والتاريخ الذي أفرز الشروط الكفيلة ببناء الغيتو الصهيوني كفيل بإفراز الشروط القادرة على إزالته من الوجود. ولكي لا يُسبى اليهود إلى بابل مرة أخرى، فإن بضعة وأربعين جيشاً قد هاجمت العراق في العشرين من آذار سنة ٢٠٠٣م. وكان ما كان.

الفصل الثالث

علائم الانحطاط

يوم راح أسفالد اشبنغلر، المفكر الألماني المشهور يعدد العلائم الدالة على انحطاط الأوربيين، وذلك في كتاب له عنوانه (انهيار الغرب) فقد تفطن لبعض الأمارات التي من شأنها أن تؤكد التغير الهابط نحو الأسفل، وهو ما طرأ على الحياة الأوروبية مع انتشار الصناعة ابتداء من أواسط القرن التاسع عشر. وكانت الرياضة والتضخم السكاني وتختر الشكل الفني بين أهم العلائم التي رأى فيها اشبينغلر مظاهر للإنحطاط وأدلة على الانحطاط.

ولكن ذلك المفكر الألماني الذي يشطح كثيراً بحيث لا تراه يصيب إلا بقدر ما يرتكب من أخطاء هي من فصيلة الشطح والتهويم، والذي سرق لباب نظرية ابن خلدون دون أن يذكر اسمه في كتابه قط (والجدير بالتنويه أن المقدمة كانت قد ترجمت إلى اللغة الألمانية سنة ١٩١٠م، أي قبل ظهور الطبعة الأولى لكتاب اشبنغلر بسبع سنوات)، إن ذلك المفكر قد نسي علامة

كبرى من علائم انحطاط أوروبا، وهي أن الأوربيين قد وضعوا أنفسهم في خدمة اليهود، أو تحت إمرتهم، وذلك على نحو غير مسبوق بتاتاً في تاريخ البشرية كله، بعدما كانوا يحتقرونهم ويكرهونهم بصراحة تامة. ولا أدل على ذلك من مسرحية(يهودي مالطة) لمارلو،أستاذ شكسبير، وكذلك مسرحية (تاجر البندقية)، لهذا الأخير نفسه، حيث يوصف شايلك المرابي اليهودي، بأنه (الوغد الذي ليس فيه موسيقى).

ومن غير المعقول أن يجيء هذا التحول العميق في الحياة الأوروبية دون أن يبذل اليهود أنفسهم جهداً كبيراً من أجل إنجازه وترسيخه. وما من احد يدري متى بدأت تلك الكائنات الخبيثة بالتحرك في الظلام صوب ذلك الهدف، ولا كيف تسللت إلى ذروة السلطة في كل مجتمع من المجتمعات الأوروبية. بيد أن في الميسور الزعم بأن القرن الثامن عشر قد شهد نشاطاً غزيراً لليهود في أوروبا. ويبدوا أنهم قد أسهموا في الثورة الفرنسية من وراء الستار، وذلك لأن من شأن تلك الثورة أن تمنحهم التساوي مع بقية الأوروبيين، كما تمنحهم فرصة كافية للهيمنة على أسواق أوروبا وأموالها التي صارت وفيرة جداً بعد اكتشاف أمركا.

وحين أصدر نابليون وعداً لليهود بإنشاء مجتمع يهودي في فلسطين، وذلك سنة ١٧٩٩م، يوم كان يحاصر مدينة عكا، فقد جاء ببرهان حاسم على أن اليهود صاروا قوة هائلة في أوروبا، إن لم يكونوا قد

صاروا أسيادها بالفعل، ولولا ذلك لما وعدهم الرجل بأن ينشىء لهم الغيتو الذي أنشأه الإنجليز بعد نابليون بمائة وخمسين سنة تقريباً.

أما القرن التاسع عشر فكل ما فيه ينضح بهيمنة اليهود على المجتمعات الأوربية. فلقد تحدثت بعض الصحف الإنجليزية جهرة، في ثلاثينيات ذلك القرن عن وجوب رحيل الفلسطينيين المسلمين إلى سوريا والمسيحيين إلى لبنان ابتغاء إخلاء الأرض (لشعب الله المختار). وتحت ذريعة (أرض الأجداد) هذه استطاع اليهود أن يسرقوا أرض الشعب الفلسطيني في رابعة النهار. كما أن القنصلية البريطانية في القدس، وبأوامر من رئيس وزراء بريطانيا يومئذ، قد أجرت إحصاء لليهود في فلسطين خلال ذلك العقد الرابع نفسه، فوجدت أن عددهم عشرة آلاف نسمة، وأنهم يتجمعون في ثلاثة أماكن هي طبريا وعكا والقدس. ويمكن لكل ذي لب أن يرى هذين الخبرين دليلاً على أن بريطانيا قد أصبحت تحت هيمنة اليهود، وإلا ففيم هذا الاهتمام بتلك الكائنات التي لا مصلحة لها معهم قط. لقد صارت بريطانيا، منذ ذلك الحين وحتى أواسط القرن العشرين، العدو الأول للفلسطينيين والخادم الأكبر لليهود، وذلك قبل أن تحل محلها أمركا، وعلى نحو هستيري أيضاً. ويبدو أن الضغائن القديمة ما زالت توجه السياسة حتى اليوم.

إذن، يهود بولونيا وروسيا واكرانيا ورومانيا أجدادهم من فلسطين، وليسوا من أوروبا الشرقية، وإن

من حقهم أن يتملكوا ذلك الإقليم لأنه أرض أجدادهم وفقاً لما يزعمون. يقيناً، إن النكبة التي حلت بالفلسطينيين سنة ١٩٤٨م، بل إن سلسلة النكبات التي تعرضوا لها منذ عام النكبة حتى اليوم، قد صنعها الأوربيون الشرقيون بالدرجة الأولى. فمما هو واضح أن معظم قادة الحركة الصهيونية قد جاؤوا من أوروبا الشرقية. بن غوريون، موشي دايان، غولدا مائير، مناحيم بيغن...الخ.

****

ولكن نكبة الشعب الفلسطيني قد بدأت تطبخ يوم اكتشفت أمريكا، ليس فقط لأن الولايات المتحدة سوف تنحاز إلى اليهود انحيازاً هستيرياً لا ينم إلا عن تشنج كئيب، ولكن لأن اكتشاف أمريكا قد زود أوروبا بالمواد الخام الكافية لإنجاز اختلال في التوازن بين الشرق والغرب، مما جعل المجال العربي، بل العالم الإسلامي كله، عاجزاً أمام عدو إفرنجي لا مثيل له من قبل. إن هذا الاختلال في التوازن بين الإمبريالية والشعوب المضطهدة هو سبب البؤس الذي عانت منه، ومازلت تعاني، ثلاث قارات هي أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا. أما مضمون الحال فهو أن الكائنات الأورو- أمريكية تقول لبقية الجنس البشري: سوف نأكل وأنتم سوف تجوعون وأنوفكم راغمة. وهذا شأن حتمه اختلال التوازن بين الطرفين. وهو اختلال ما كان في الميسور أن يجيء إلا بسبب اكتشاف أمريكا. ولقد صارت نكبة

فلسطين حتمية تاريخية منذ أن تم ذلك الاكتشاف الذي دشن انحطاط الجنس البشري كله. وفي الحق أن الحركة الصهيونية لا تتيسر دراستها بمعزل عن تاريخ أوروبا والولايا ت المتحدة، وذلك لأنها إفراز من إفرازات الإمبريالية حين بلغت أعلى أطوارها.

وربما جاز الذهاب إلى أن اكتشاف أمريكا الذي أفضى إلى هذه الصناعة الماحلة، بل ذات المحتوى اليرقاني، أو حتى السرطاني، قد كان أكبر كارثة حلت بالجنس البشري، لأنه جاء بمثابة استقلاب لشخصية الإنسان كلها، فقد أحيل من كائن فني إلى كائن اقتصادي، لا يقيم أيما وزن لغير الغرائز، بل لغير المال والسلاح الذي من شأنه أن يحرس المال. وهذا يعني أن الجنس البشري، بسياقه العام، قد تسفل وانحط، أو انحدر باتجاه الحيوان. ولولا هذا الانحطاط لما قُيّض لليهودي أن ينتصر بتاتاً، لأن تحول الإنسان من كائن فئي إلى كائن اقتصادي يعني تحوله من إنسان إلى يهودي، أي من فنان يعبد السموا والعلو إلى كائن مادي يؤله السلعة والمال واللذائذ الجسمانية.

ولا مرية في أن وصول دزرائيلي اليهودي إلى رئاسة حزب المحافظين، وكذلك إلى رئاسة الوزراء في بريطانيا سنة ١٨٧٤م، هو بيّنة شديدة الدلالة على أن المجتمعات الأوروبية قد صارت في قبضة اليهود، تماماً مثل طائر أطبق الفخ على عنقه. ولكن وعد بلفور هو تاج البراهين على أن اليهود قد جعلوا من أوروبا مطية

لهم يمتطونها إلى غاياتهم كلها، ولا سيما إلى احتلال فلسطين التي ابتلاها التاريخ بتلك الطفيليات المسعورة. ولا يدري المرء ما هي مصلحة بريطانيا من جراء ذلك الوعد السخيف يقيناً، إن حجم اللامعقول في التاريخ هو أكبر من حجم المعقول.

ومما هو محسوم أن اليهود لا يملكون أن يصنعوا شيئاً ذا بال لولا أدواتهم الغربيون الذين راحوا يتفورون بالحركة والنشاط منذ اكتشاف أمركا وحتى الزمن الراهن. ولكن اليهود قد هيمنوا عل الكرة الأرضية منذ أن هيمنوا على أوروبا ثم على أمركا. ففيما يخص العراق، مثلاً، أصدر شايلك أوامره، فلم يبق على الدنيا إلا أن تنفذ وتطيع. ويبدو أن نفوذ اليهود قد امتد حتى شمل أمما لم تكن لها أية صلة بالتوراة في أي يوم من الأيام. وما من أحد يعرف على وجه اليقين كيف ستنتهي هذه المرحلة التاريخية، ولا متى ستبلغ إلى أقصى أمدائها.

واضح إذن، أن الأوروبيين وامتداداتهم في أمريكا واستراليا، ولا سيما أولئك الذين يتكلمون اللغة الإنجليزية كلغة أولى، قد وظفوا نفوذهم العالمي، على نحو غير مفهوم، بغية تشييد الغيتو الصهيوني القائم على الجريمة، والذي لا يتصف بأية صفة قبل الشذوذ واللاعقلانية. وربما جاز للمرء أن يؤكد على أنه ما من حضارة في التاريخ كله قد وظفت العقل في خدمة اللاعقلانية كما فعلت هذه الحضارة الأورو- أمريكية

التي أفرطت في تقديم الخدمات لليهود، والتي اخترعت من الأسلحة ما تعجز الشياطين عن مثله، وذلك بواسطة توظيف العقل والعلم والتكنولوجيا في هذا المضمار الكالح الشرير.

ومما لا يخفى على أهل الحضور أن الذين يتكلمون الإنجليزية كلغة أولى هم ألد أعداء العرب بوجه عام، والفلسطينيين بوجه خاص. وهم همج من جهتين: من جهة كونهم أوربيين شماليين، ومن جهة كونهم توراتيين لا يقيمون أيما وزن للدم البشري الذي ينبغي تقديسه. ولهذا، فقد أبادوا الهنود الحمر وضربوا اليابان بالأسلحة النووية دون أن يرف لهم جفن. (ولقد سامحتهم اليابان وهجمت علينا سنة ٢٠٠٣م). والتعذيب الذي مارسوه على الأسرى العراقيين وبخاصة سمل عيونهم، والاعتداء على شرف النساء الأسيرات اللاتي خرجن من السجن وهن حوامل، هو دليل حاسم على همجية تلك الشعوب الناطقة باللغة الإنجليزية، والتي ما عاد لها من وظيفة سوى أن تصنع شقاء للأمم الضعيفة التي تخونها حكوماتها بالتحالف معهم. أليسوا توراتيين؟ إذن على المرء ألا ينتظر منهم سوى اللؤم والشر والعدوان.

ويبدو أن هيمنة اليهود على المجتمعات الناطقة باللغة الإنجليزية أشد مما هي عليه في أي صنف آخر من أصناف المجتمعات، ولكن جميع البلدان الأورو-أمريكية لم تدرك حتى الآن مدى رضوخها لليهود ومدى

هيمنتهم على ثرواتها ومصائرها. ولعل أول حقيقة يتوجب على كل أوروبي أو أمريكي أن يدركها اليوم تتلخص في أن له عدوين: اليهود والترف، أو الاستهلاك (وليس المسلمون). فرحم الله ابن خلدون الذي أكد على ما فحواه أنه (ما هدم الممالك إلا الترف). ولكن اليهود الخبثاء المتغلغلين في مؤسسات الغربيين قد استطاعوا أن يحرفوا الشبهة عن أنفسهم، وأن يقنعوا تلك الأقوام بأن عدوهم الوحيد هو الإسلام، وليس اليهود. (ضربة الحادي عشر من أيلول الخبيثة).

وفي ميسور كل من له خبرة بأخبار تلك الملة أن يلاحظ حقيقة مؤداها أنهم يتحالفون دائماً مع القوى الصاعدة في فضاء التاريخ. فلقد تحالفوا مع الفرس ثم مع الإسكندر،عدو الفرس، ثم الرومان، وكذلك العرب. وبعد العرب تحالفوا مع الأتراك، وحين أفل نجم العثمانيين فقد تحالفوا مع أوروبا، أكبر أعداء الأتراك يوم بزغ نجمها بعد اكتشاف أمريكا الذي أسس استقلالاً في التاريخ العالمي لا مثيل له من قبل.

وهاهم اليوم يتحالفون مع تلك الأمريكا التي لا تقل عن كونها أكبر قلعة بناها الشيطان على الأرض. يقيناً، إن اكتشاف أمريكا قد كان وبالاً على الجنس البشري كله. فكم حرباً خاضت الولايات المتحدة منذ قنبلة هيروشيما سنة ١٩٤٥م حتى اليوم؟ وكم إنساناً قتلت في القارات الثلاث التي نكبت بهذا الوباء الذي يسمى الولايات المتحدة المصرّة على تجويع ثلاثة أرباع

الجنس البشري بواسطة النهب والعدوان. إنه ليس إنساناً أصلياً من يحترم هذه الحضارة الحديثة وأناسها الذين يأكلون لحوم أطفال الشعوب الضعيفة، دون أن يشعروا بأي تأنيب من ضمير وذلك لأنهم بغير ضمير حقاً. بل إن إنسانية الإنسان في هذه الأيام الكابية تتحدد رتبتها بمدى الاحتقار الذي يكنه لهذه الحضارة الأوربية المنهوبة من عظام الناس، والمكرسة لخدمة اليهود على نحو لا عقلاني. وهذا يعني أن الازدراء حصراً هو الموقف الذي لابد منه إذا ما أراد المرء أن يصبح إنساناً حقيقياً مأهولاً بالكرامة وطيبة النفس. فالطيبة هي القيمة الأولى في الحياة البشرية. وإنها لشيء زكي الرائحة، إذ تشتقها اللغة العربية من الطيب الذي هو العطر.

****

وللمرء أن يشاهد الغربيين، الذي ماتت أرواحهم وترمدت ضمائرهم، على شاشة التلفزيون وهم لا يفعلون سوى واحد من فعلين: يمارسون الرياضة أو يرقصون ويغنون. وما من واحد فيهم يدرك أنه سعيد وسليم لأنه يأكل لحوم أطفال الأمم الفقيرة. ويبدو أنهم ما عاد لهم اليوم من وظائف سوى ثلاث:

أولاً– يمارسون السطو المسلح على الشعوب الفقيرة أو الضعيفة، أو تلك التي تتآمر عليها حكوماتها، ويخطفون اللقمة من أفواه أطفالها دون أن تهتز ضمائرهم، لأن ضمائرهم ميتة أو مترمدة. وهذا يعني أنهم يصنعون

الشقاء والبؤس لبقية الجنس البشري.. ولكنهم لا يملكون أن يفعلوا ذلك إلا لأن لهم حلفاء كثيرين في أي مجتمع يهاجمون. وإن مما هو ملحوظ جهرة أن حلفاءهم داخل العراق أكثر من أعدائهم بكثير. ومن شأن هذه الحقيقة أن تؤكد ما فحواه أن العدو الداخلي أخطر على الشعوب أو البلدان المعتدى عليها من العدو الخارجي. ولا ريب في أن الحضارة الأوربية لها محاسن جمة، ولكن جميع محاسنها لا تعادل مثلبة واحدة من مثالبها التي لا تحصى، ولتكن الأسلحة النووية. مثلاً، بل حتى قنابل الأطنان العشرة التي استخدموها في العراق وأفغانستان. إنهم مازالوا همجاً معادين للحياة على نحو لئيم. ويبدو أن النفس الشمالية (النوردية) مشحونة بشحنة كبيرة من العتاهية والأمراض النفسية التي لا تكفي الجريمة والانتحار لتفريغها، فلا بد من تفريغها في الحروب والضربات الموجعة التي يسددونها للآخرين. ويبدو أن على بعض أمم الشرق أن تتحمل عدوانهم ريثما تفتر سورتهم بعد قرن أو اثنين، إذ لا أمل للأمم الضعيفة ما دامت الحكومات متحالفة مع الغربيين ضد شعوبها.

وحين يقال بان الأورو- الأمريكيين قراصنة يمارسون السطو المسلح على الشعوب الفقيرة وينهبونها بدناءة وخسة (مثلاً، فضيحة برنامج النفط مقابل الغذاء في العراق)، فإن هذا القول ليس هجاء البتة، ولكنه وصف للحقيقة أو لطبيعة الحال. ويبدو أن الواقع نفسه هو من البذاء والضعة بحيث لا يتيسر

وصفهُ على حقيقته إلا بلغة ذات صفات هجائية. ومما ينبغي تأكيده على نحو خاص أن الإنجليز والأمريكيين هما الشعبان الأكثر همجية، أو الأكثر ميلاً إلى العدوان وسفك الدماء البشرية بين جميع أمم الغرب. ولا مبالغة في الذهاب إلى أن الإنجليز هم الشعب الأكثر جشعاً ولؤماً وخبثاً في هذه الدنيا المنكوبة بالأنذال. إنهم يعبدون المال عبادة متطرفة لا مثيل لها تحت الشمس. ولقد افتروا على النازية والفاشية عندما وصفوها بأنها الأكثر همجية في العالم، إذ للحق أن النازيين ألطف من الأمريكيين الذين ضربوا اليابان بالأسلحة النووية. إن النازية هي هذه الأمة الأمريكية التي تحترف القرصنة والإجرام والسطو المسلح على الشعوب الفقيرة. فأينما حل الأميركيون حلت المجزرة وحل البؤس والشقاء. فهؤلاء القراصنة لا يهمهم سوى ترفهم الذي يجوّعون أمماً كثيرة من أجله، ولكنهم لا يعلمون أن هذا الترف هو الداء الذي سوف يقضي عليهم، آجلاً أم عاجلا. إن الترف هو الانحطاط بأم عينه.

ثانياً- يعبدون المال وغرائز الجسد ويمتثلون أيما امتثال للدوافع الشهوانية. لقد كفوا عن إنتاج الفنون والآداب والفلسفات منذ ثلاثين سنة على الأقل. فلئن كان اشبنغلر قد رأى في تخشّب الشكل الفني أمارة تدل على انهيار الغرب، فإن الفنون والآداب قد اختفت من أوروبا وأمريكا بعد وفاة ذلك المفكر بفترة وجيزة. وهذا يعني أن الغربيين ما عادوا سوى كائنات شهوانية فقط أو

كائنات تعيش من أجل الجسد وحده. وقد يتيسر القول بأن من المتعذر أن تظل هناك آداب وفنون وفلسفات، أو أيما شيْ نبيل، بعد انتصار اليهودي، إذ لا يمكن لليهودي أن ينتصر إلا بعد أن يهزم الإنسان نفسه. ومتي هزم الإنسان فلن يبقى هنالك شيء ذو بال.

إذن، توضحت علائم الانحطاط على الحضارة الحديثة، حضارة السخام والتلوث المادي والروحي. أو حضارة الغربيين المصرين على أن يكونوا أدوات بأيدي اليهود، وعلى أن يبتزوا الأمم الضعيفة ابتزازاً لاعقلانياً دون أن يرف لهم جفن. ومع ذلك، فإنك تراهم يزعمون بأنهم ملائكة وبأن أعداءهم إرهابيون لا يستحقون سوى الموت. ولكن أبرز مفارقاتهم أنهم يرتكبون هذه الفظائع بأسرها ويتحدثون عن حقوق الإنسان في آن معاً. يضربون الناس بالأسلحة النووية ويزعُمون أنهم إنسانيون. فمما هو جدير بالذكر أن ضابطاً أمريكياً برتبة لواء قد صرّح في أوائل هذا العام ٢٠٠٥م بأن القتل في أفغانستان فعل ممتع جداً. ترى، إن لم تكن البربرية هي هذا الخلق بأم عينه، فماذا عساها أن تكون؟(حبذا لو أقدم أحد الباحثين على البحث في تاريخ الإرهاب الأوروبي والأمريكي).

وربما استطاع الحساسون أن يلمحوا علائم الانحطاط وهي تلوح على الجنس البشري كله. فاضمحلال الفلسفات والفنون والآداب هو وحده أكبر أمارة على أن الاتضاع قد أخذ يتفشّى في الحياة البشرية

بأسرها. ويبدو أن الإنسان قد أخذ يتقهقر باتجاه الطور القردي، لأنه أحيل إلى كائن اقتصادي يجهل كل علو. إن هذه المادية الآخذة بالاستفحال المضطرد قد عطبت الجذور التي تؤصل إنسانية الإنسان. وحين تعطب هوية الإنسان الداخلية، فإنه لا يبقى منه شيء سوى القرد، أو سوى الحيوان وحسب.

يقيناً، إن حجم الجنون في التاريخ البشري ليس طفيفاً، بل إنه يضاهي حجم العقل نفسه، أو لعله أن يبذه بكثير. وربما جاز الزعم بان هذا الجحيم الجاحم الذي يسمى التاريخ هو جنون استطاع أن يموه نفسه على هيئة عقل. ولكم صدق ابن عجيبة حين قال في شرح الحكم العطائية :"بني العالم على سر الازدواج".

ثالثاً– يخدمون اليهود ويتحمسون للغيتو الصهيوني أكثر مما يتحمسون لبلدانهم نفسها. وهكذا صارفي ميسورك القول بأنهم لا هدف لوجودهم سوى النهب والسهر على أمن الغيتو الصهيوني. فضمائرهم لا تهتز بتاتاً حتى لو أبيد الشعب الفلسطيني كله، بل العالم الإسلامي برمته. ولكنهم يستحيلون إلى لطف ورقة وإنسانية إذا ما تأذى هر من هررة اليهود.

ولابد من أن يكون هنالك سبب لهذه الظاهرة العجيبة، أقصد إسراف الغربيين في الانحياز لليهود انحيازاً هستيرياً مفرطاً. والسبب- كما أسلفت عليك- هو تحكم اليهود بالمجتمعات الأوربية والأمريكية وسيطرتهم عليها إلى حد غير مسبوق. ولكن هذا لا

يكفي. فربما جاز الظن بأن الأوروبيين والأمريكيين مازالوا حاقدين على العرب والإسلام. وهذا حقد موروث عن أزمنة غابرة. ويبدو أن اليهود قد استغلوا هذه الحقيقة، وراحوا يوجهون الغربيين في هذا الاتجاه. ثم إن هنالك قاسماً مشتركاً بين الطرفين، وهو التوراة التي يؤمنون، أو كانوا يؤمنون، بها جميعاً. ولا يدري المرء كيف ارتبطت المسيحية المنسوجة من النبل والطيبة والأخلاق الإنسانية العالية، بهذا الكتاب المتجهم الأطلس العربيد. ولقد تمكنت الهيمنة اليهودية على المراكز الدينية في بلاد الغربيين أن تنتزع من الفاتيكان براءة تبرئ اليهود من كل أذى حاولوا أن يلحقوه بالسيد المسيح عليه السلام. لقد تحكموا بالعقيدة الدينية، بل حتى بصميمها نفسه. فهل بعد هذا النفوذ من نفوذ؟

وههنا لابد من التأكيد على أن الاستهانة بالدين من حيث هو قوة تسهم في تحريك التاريخ، هي موقف لا يقل عن كونه دليلاً على ضمور العقل. فالتاريخ صراع بين قوى تتصاول ويأكل بعضها بعضا، وليس في صفاتها صفة أوضح من الصفتين القومية والدينية. والأهم من ذلك كله أن التاريخ أعقد وأبعد من أن تطاله نظرة الاقتصاديين القصيرة المدى. ومن مثالب أولئك الاقتصاديين أنهم يحكمون على التاريخ قبل أن يدرسوه. ولقد كان كارل ماركس واحداً من أولئك المتسرعين فقد زعم أن التاريخ هو صراع الطبقات، يوم كان في السنة

الثامنة والعشرين من سنوات عمره. ولكن المتأني سوف يقبل ما فحواه أن التاريخ يحركه ألف محرك ومحرك.

وعلى أية حال، فإن ارتباط المسيحية بالتوراة هو أمر من شأنه أن يحير كل عاقل، إذ كيف صارت المحبة تابعة للحقد،وكيف صار اللطف مرتبطاً بالشناعة التي تسمى يهوا. وأهم ما في الأمر أن ارتباط المسيحية بالتوراة هو أكبر سبب عمل على إلحاق أبشع المصائب بالشعب الفلسطيني المخذول.

****

ولكن هيمنة اليهود على العالم، من خلال هيمنتهم على تلك الأداة الحادة التي تسمى الولايات المتحدة، سوف تظل أمراً مقلقاً للذهن البشري، ولا سيما للإنسان الحساس الذي هو وحده الإنسان على الأصالة. فكيف تمكنت تلك الطفيليات من أن تتسلل إلى سدة السلطة في معظم البلدان القوية، وكيف استطاعت أن تتخذ منها مطايا تبلغ بها إلى أغراضها في الهيمنة والابتزاز؟

ثم أليس من العار على هذا العالم كله أن يبذل جهداً جنونياً من أجل استئصال المانوية ذات البنية الغنائية الشاعرية، بل الإنسانية النبيلة، وأن يستبقي اليهود حثالة الجنس البشري وفضلات التاريخ بأسره. فربّما جاز للمرء أن يزعم بأنه ما من مكان لكل ما هو نبيل أو نقي في هذا العالم المهود حتى مخ العظام.

أليست هذه المفارقة، أعني إبادة المانوية واستبقاء اليهودية، هي واحدة من أهم البيّنات الدالة على أن اللاعقل يتجلى في التاريخ أكثر مما يتجلى العقل؟ أليس من العار على الجنس البشري أن يخلّي بين الفلسطينيين العزّل وبين اليهود المدججين بالجحيم لكي يفرغ أولئك الجبناء حقدهم الكالح الدامس في أكباد الأطفال الأبرياء الذين لا حول لهم ولا طول؟ فلكم هو عالم قاس ولئيم هذا العالم اللامبالي البليد ولكنه عالم لا يظل محايداً وبليداً إذا ما جرح هرّ من هررة اليهود.

ومن الغرائب أن يتبجح إرنست رينان، ذلك العصابي الفرنسي المشهور، وكذلك سواه من المعتوهين، بتفوق العنصر الآري، وأن يعجز في الوقت نفسه عن إدراك الانحطاط الذي راح يلتهم المجتمعات الآرية في حياة رينان نفسه. كيف يكونون متفوقين وهم يضعون أنفسهم في خدمة اليهود دون أن يدركوا ذلك بتاتاً؟ ثم إنهم لو كانوا متفوقين لجاؤوا إلى التاريخ يوم كان الزمان في شبيبته. لقد تأخر ظهورهم كثيراً، وهذا وحده دليل على أنهم أدنى من الشعوب التي سبقتهم في الظهور على مسرح التاريخ. ولكن انحطاط أوروبا لم يفت نيتشه، ذلك المعتوه الذي برهن على غباء آخر حين راح يتحدث عن الإنسان المتفوق في زمن الصناعة الثقيلة. غير أن فيه غريزة أهلته للتقزز من اليهود ذوي الأنياب الزرقاء.

وعلى أية حال، فإن في الميسور القول بأن العرق الآري، لو كان متفوقاً لانطلقت الحضارة من أوروبا وليس من مصر والعراق والشام. لماذا لم يقيض لأوروبا أن تعرف الحضارة في فجر تاريخها إلا على الشواطىء القريبة من غرب آسيا وشمال إفريقيا، أي إلا في بلاد اليونان والرومان، وإلا بعد ما شاخت مصر وبلدان الهلال الخصيب في الألف الأول قبل الميلاد؟ ولماذا كان اليونانيون الذين عاشوا في الأناضول أسبق إلى الحضارة من اليونانيين الذين عاشوا في اليونان نفسها؟ هو ميرو هزيود من الأناضول. وطاليس والدفعة الأولى من الفلاسفة اليونانيين، وكذلك طلائع المؤرخين والجغرافيين الإغريق، هم من الأناضول أيضاً. فهل كان هذا كله من قبيل الصدفة؟

يقيناً، إن رؤساءهم وفلاسفتهم كثيراً ما ينمون عن غباء متطرف. فمثلاً، قبيل الهجوم على العراق في آذار سنة ٢٠٠٣م، راح الرئيس الأمريكي الذي تلوح البلاهة على وجهه بكل وضوح، أقله أمام الألمعي، راح يقول: (إننا سوف ندافع عن ترفنا). إذن، سوف يهجمون على العراق لينهبوه ويتمتعوا بثرواته، وليس لأنه يمتلك أسلحة محرمة، ولا لأنهم يريدون أن يشيدوا نظاماً ديمقراطياً في ذلك الإقليم الذي ابتلي بفرط ميلهم إلى العدوان. فلو كان العراق يمتلك أسلحة محرمة لقال ذلك المعتوه: إننا سوف ندافع عن أنفسنا، وليس عن ترفنا.

ثم إن الرجل نفسه، وهو نسخة غبية عن شعب غبي، يجهل ما فحواه أن ترفهم هو الذي سوف يزيلهم من الوجود، أو سوف يهدم مجتمعاتهم، أو يحيلها إلى قوى طفيفة الشأن. ثمة عدالة نسبية في قلب المسار الحي للتاريخ. وما من شيء إلا وله ضريبة. وهذا شأن لا يستطيع أن يستوعبه أصحاب الأذهان المعقومة والنفوس الحاقدة. فمن الواضح أن سياستهم تسير وفقاً لهذا المبدأ، يريدون أن يلتهموا كل شيء ولا يهمهم بتاتاً ما قد ينتج عن هذا الجشع، كما لا يعنيهم ما تكابده الشعوب المنهوبة من فقر ومرض وجوع. ولئن كان الشيء يذكر بما هو مثله، فإن هذا العجز الذي يبديه بوش، والذي يحول بينه وبين إدراك خطورة التطرف على البشر وعلى مجتمعاتهم، من شأنه أن يذكر المرء بالفهم البليد الذي قدمه المؤرخ الإنجليزي إدوارد غبن المتوفى سنة ١٧٩٤م، وذلك في كتابه المشهور، (ظهور الإمبراطورية الرومانية وانهيارها). وهو كتاب جعل من مؤلفه أول مؤرخ حديث في العالم.

لقد رأى غبن أن المسيحية قد نخرت الإمبراطورية الرومانية من داخلها، وأن البربرية قرضتها من خارجها، وهذان هما العاملان اللذان أديا إلى زوالها. ولم يخطر في باله قط أن المسيحية والهجمات البربرية كلتيهما من نتاج الضعف الذي حل بروما الشائخة، وليس من أسباب ذلك الضعف. بل إن المسيحية، عند الخبير بشؤون التاريخ والاجتماع، قد جاءت بمثابة رد فعل على الانحطاط أو محاولة جلى

بـذلت لإنقـاذ الإمبراطوريـة المهترئـة التـي نخرهـا الترف، أو التزنخ والتخمج اللذان راحا يفتكان بها مع زوال نظـام الـشورى القـديم ومجـيء الاسـتبداد الإمبراطوري المقيت. ولكن قلة جد طفيفة من الناس هي التي تدرك أن معظم المفكرين الغربيين لا يعقلون.

أما السبب الفعلي لانهيار روما واتضاعها، وهو ما لم يستطيع أن يدركه غبن، فهو الترف الذي أحالها إلى هلام، والذي سوف يحيل إلى حطام كلاً من أوروبا وأمريكا والغيتو الصهيوني الذي هو من إفرازات الإمبريالية في أعلى أطوارها. ويمكن للمرء أن يضيف سبباً آخر لانهيار روما، وهو الحربان الأهليتان اللتان خاضتهما في القرن الأول قبل الميلاد. كما يسعه أن يزعم بأن الحروب التي خاضها الغربيون قد أسهمت في انحطاطهم الراهن الذي لا يخفى على كل من له خبرة بشؤون التاريخ.

يقيناً، إن ابن خلدون البارع في فقه المجتمعات مازال المفكر ذي البصيرة الثاقبة، والذي لم يبذه أي من علماء التاريخ الأوروبيين، منذ فيكو حتى توينبي، إذ ما من أحد فيهم قد فطن للحقيقة المحورية الخاصة بالتاريخ وحركته الكلية، والتي تنص على أن القوى العدوانية، إذ تمارس الإرهاب على الناس وتنهبهم وتبزهم طعام أطفالهم، إنما تحفر قبرها بيديها المغمستين بالدماء. ولقد صار هذا الأمر مشهداً يومياً يراه جميع الناس على شاشة التلفزيون. فلا مرية في أن ثمة صنفاً من أصناف العدل يحتمه التاريخ نفسه.

الفصل الرابع

الطبقة الخائنة

عملت الإمبريالية، الخادمة الكبرى لليهود، على تفكيك العالم الإسلامي قبل كل شيء، وذلك لكي لا يتمكن هذا العالم من الوقوف متحداً في وجه الصهيونية المتسللة إلى فلسطين منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر. فقد عمدت خادمة اليهود تلك إلى فصل العرب عن الأتراك، حماة الإسلام كله منذ بداية الحروب الصليبية وحتى بداية القرن العشرين. فأوغرت صدور العرب على الترك في بادىء الأمر، فقاموا بحركة تافهة سموها (الثورة العربية الكبرى)، وهي التي قادها الشريف حسين وأبناؤه المتآمرون مع الإنجليز، والتي تمخضت عن وعد بلفور وقيام الغيتو الصهيوني على أرض فلسطين، بعد تشريد سكانها تحت كل سماء. كما أكدت تلك الحركة، وهي التي كان يقودها الإنجليز علناً إلى تجزئة البلدان العربية على النحو الذي مازال قائماً حتى اليوم.

فلكم كان غراً (شريف) مكة (وأولاده) يوم وثقوا بالإنجليز الذين وعدوهم بدولة عربية تمتد من

اسكندرون شمالاً حتى عدن جنوباً، باستثناء فلسطين التي اتفق الطرفان على منحها لليهود. وهذه حقيقة تؤكدها اتفاقية فيصل وايزمن التي تم إبرامها في العقبة سنة ١٩١٩م. فهم يريدون من الإنجليز أن يقيموا لهم دولة عملاقة بهذا الحجم الباذخ إلى جوار الغيتو الصهيوني الذي تحافظ عليه الإمبريالية أكثر مما يحافظ الإنسان على مقلة عينه. فمن المحال أن يسمح الغربيون بنشوء دولة عربية لها هذه المساحة المنداحة والقوام المارد، لأن من شأن تلك الدولة أن تبتلع الغيتو الصهيوني بالطرق السلمية. ثم إن توحيد العالم العربي ممنوع منعاً باتاً. (ثمة مجموعة من الممنوعات ههنا: الحرب، الوحدة، الديمقراطية، التصنيع، وربما أشياء أخرى). حتى الصهاينة غير مسموح لهم بتوحيد هذه المنطقة، لأن توحيدها يعني إحياءها من جديد، وإحياؤها يعني وضع حد نهائي للنهب الذي تمارسه الإمبريالية على ثرواتها الغزيرة.

لقد كان (الشريف) حسين، الذي يدعي أنه حفيد رسول الله ﷺ، موافقاً تمام الموافقة على بناء الغيتو الصهيوني في فلسطين. فلقد كتب في صحيفة له عنوانها (القبلة)، وهي التي كانت تصدر في المدينة المنورة، وذلك في آذار سنة ١٩١٨م، مقالاً جاء فيه أن على العرب أن يستقبلوا اليهود كإخوان لهم، وأن يعاملوهم وفقاً لتقاليد الكرم العربي. كما أن ابنه فيصل قد كان أكثر قبولا من أبيه لفكرة التعاون بين العرب

وبين أبناء عمهم اليهود. ومع ذلك، فقد نفي (الشريف) إلى قبرص، وقيل إن الإنجليز قد اغتالوه بالسم في تلك الجزيرة، كما أن ابنه فيصل قد طرده الفرنسيون من سوريا فراح يتشرد في الدنيا مدة من الزمن، حتى استدعاه تشرشل وعينه ملكاً على العراق، كما عين أخاه عبد الله أميراً على الأردن. وأما سبب نفي (الشريف) إلى قبرص فهو إصراره على الوحدة العربية، وكذلك على الدولة العربية الكبرى التي وعده بها الإنجليز. ولم تكتف الإمبريالية بأن كشرت عن أنيابها لحليف الأمس بل لقد افتلذت لواء اسكندرون من جسد العالم العربي ووهبته للأتراك. وبذلك فصلت العرب عن حلفائهم التاريخيين، فصار الشعبان عدوين لدودين، بل صار اليهود والترك أصدق الأصدقاء. ثم التفتت الإمبريالية إلى القوة الإسلامية الكبيرة الثانية في الشطر الغربي من آسيا، أعني إيران، وراحت تعمل على فصم الصلات التي تربطها بالعرب. وعند ذاك خطر ببالها أن تسلم الشاه إقليماً عربياً قائماً بذاته. إنه عربستان الغني بالنفط والثروات الزراعية. وبهذين الفعلين الخبيثين انفك العرب عن الشعبين اللذين تربطهما بهما روابط تاريخية متينة وطويلة الأمد، واللذين يمكن لهما أن يكونا حليفين للعرب في صراعهم الطويل والمرير ضد الإمبريالية والصهيونية المتلاحمتين تلاحماً لا مثيل له بتاتاً.

أما ثالثة الأثافي التي أسهمت أيما إسهام في نشوء الغيتو الصهيوني، فهي البلادة أو الخذلان الذي أبدته

منطقتنا الممتحنة بأقذر أصناف الأنذال. وفي الحق أن هذا الخذلان ليس بجديد في تاريخ هذه المنطقة التي تتألف أساساً من مصر والشام والعراق. فلقد سبق لها أن خذلت كلاً من هنيبال والمسيح والحسين بن علي ﷺ.

ولكن منطقتنا لم تخذل فلسطين بالصدفة في هذا الزمن الحديث. فلعل أبرز حقيقة ينبغي أن يعرفها المرء عن البلدان العربية الراهنة أنها ترضخ لهيمنة طبقة خائنة أو متحالفة مع الإمبريالية والصهيونية. ولا مراء في أن هذه الطبقة الخائنة هي أصل الداء والبلاء. فلئن كان (الشريف) حسين وأولاده قد تحالفوا مع الغربيين ضد الأتراك لأنهم أغرار، أعني أنهم يجهلون ماهية السياسة أو خبثها وخداعها، فإن رجال الطبقة الخائنة منذ الحرب العالمية الثانية حتى اليوم يتحالفون مع اليهود وأدواتهم الغربيين عن وعي وإدراك لما يفعلون.

ومما لم يعد خافياً على الألباء أن الحلف المتحد لخدمة اليهود، ولابتزاز ثروات العرب واقتسامها، هو حلف مثلث الأركان، يتألف من الإمبريالية والصهيونية والطبقة الخائنة المغمسة في الفسق النفطي، والتي تنوب عن اليهود في تملك البلدان العربية والتحكم بمصيرها ونهب غنيمتها النفطية. وفي الحق أن اليهود وأدواتهم الغربيين لا يملكون أن يهزموا العرب إلا بمساعدة هذه الطبقة الخائنة. ولذا كانت حصتها من الغنيمة النفطية كبيرة جداً، إذ يحصل بعض الأفراد على عشرات المليارات من الدولارات. ومن هنا يجوز الجزم بأن

العدو الداخلي، أو الطبقة الخائنة، أخطر من ذلك العدو الخارجي بكثير.

نعم. إن في ميسور الذهن أن يتحدث عن طبقة خائنة تهيمن على مصير العرب، أو على حاضرهم ومستقبلهم. وهذه الطبقة التي تملك المليارات اليوم، والملايين بالأمس، هي التي ناولت فلسطين لليهود في عام النكبة، كما راحت تحرس حدود الغيتو الصهيوني العاجز عن حماية نفسه بنفسه، وكذلك عن حماية المصالح الإمبريالية في المنطقة العربية، أي على النقيض من مظهره المزور الخداع. فمما هو واضح أن جيش الغيتو لم يستطيع أن يهيمن على قطاع غزة، وذلك بعد مضي ثمان وثلاثين سنة على احتلال الصهاينة لتلك الفلذة الصغيرة من أرض فلسطين التي لا تزيد مساحتها عن خمسمائة كيلو متر مربع. ولهذا، فإن الهيمنة الصهيونية على القطاع سوف ينهض بها ذلك الجزء من الفلسطينيين المتحالف مع اليهود، أي سوف تنهض بها الطبقة الخائنة التي تعمل مع اليهود والإمبرياليين على تلقيمنا الغيتو الصهيوني لقمة إثر لقمة، أو على صبه في حناجرنا قطرة إثر قطرة، أو كما قال كسنغر ذات يوم: سياسة الخطوة بعد الخطوة.

فمن قرأ كتاباً عنوانه (مكان تحت الشمس)، وهو الذي ألفه نتنياهو، رئيس الغيتو سابقاً، أدرك أن الصهيوني الرعد يد يحمل قنبلة نووية في يده اليمنى، ومثلها في يده اليسرى، ومع ذلك فإنه يرتجف

هلعاً وخوفاً من المستقبل. ومع هذا، فقد راحت بعض الفئات الفلسطينية السياسية تحاول إقناع الناس بأن الإمبريالية قد بنت الغيتو الصهيوني ليحمي مصالحها في المنطقة. ومن العبث أن تحاول إقناع تلك الفئات بأن ذلك الغيتو يحتاج إلى حماية العالم كله، ولا سيما العرب، بل بعض الفلسطينيين بخاصة، لكي يتمكن من الاستمرار في الوجود. وسوف تضيّع وقتك سدى إذا ما كررت على مسامعهم بان التاريخ قد راح يمزح أو يهرج حين جعل لليهود جيشاً مدججاً بجميع أصناف الأسلحة. فالسلاح والجيش والحرب ظواهر ليست من عادات اليهود ولا من سوس أنفسهم. والحرب ليست أسلوبا من أساليبهم في الاستيلاء والتفوق. فهذه هي طرائق الغربيين الجحيميين الذين غشوهم وزوروهم وأظهروهم للعالم كأنهم أبطال صناديد. فمن عادات اليهودي المألوفة أنه يحقق أغراضه بالبيع والشراء، أي بالمال وليس بالسلاح. بل إن اليهودي ينهب بواسطة الغش، على عكس الغربيين القراصنة الذين ينهبون بجميع الوسائط، ولا سيما السطو المسلح وإراقة الدماء البشرية البريئة. فلكم أصاب أمانول كانت، الفيلسوف الألماني المشهور، حين قال بأن اليهود (ملة من الغشاشين)، وذلك في كتاب له عنوانه (علم الإنسان). فكيف يتيسر لأولئك الغشاشين أن يحموا المصالح الإمبريالية في العالم العربي، مع أنهم يحتاجون إلى من يحميهم؟

ومما هو مشهور على مستوى العالم كله أن اليهودي لا يكون إلا حيثما يكون المال. ولا يستوطن إلا في المال أو داخل حصون المال. أما هذه العدوانية فهي شراسة الغربيين وهمجيتهم، واليهود سوف يتخلون عنها عاجلاً أم آجلاً، لا لأنهم غير أنذال، بل لأنها ليست من سوس أنفسهم التي تميل دائماً إلى الالتهام بأسهل الطرائق. وعندئذ سوف يطردهم الناس بالحجارة، وسوف يعودون إلى الذل القديم الذي كانوا يلبسون.

****

وعلى أية حال، فقد أسندت الإمبريالية لهذه الطبقة العربية الخائنة ثلاث وظائف:

أولاً- حماية حدود الغيتو الصهيوني من أي خطر يأتيه من خارجه المفعم بأناس لا يكنون لليهود سوى الكراهية والاحتقار.

ثانياً- تخريب البلدان العربية من داخلها وقمع ثوراتها قبل نشوئها، وتوجيه ضربات إستباقية للناس ابتغاء ترويعهم وإرغامهم على الركوع لإرادة اليهود. إن حرمان الناس من الكرامة والحرية، ولاسيما حرية التعبير، هو أكبر استلاب تمارسه الطبقة الخائنة وسلطاتها المستبدة على الإنسان العربي. فلقد أثبتت التجربة أن الجيوش الأجنبية أرأف بنا من الجيوش الوطنية الحاملة للطبقة الخائنة، وهي التي ارتكبت من

المجازر في بعض البلدان العربية مالم ترتكب الجيوش الإمبريالية مثله في أيام احتلالها لهذه البلدان.

ففي صلب الحق أن هذه الطبقة الخائنة تشبه درعاً يصد عن الأعداء سهام الشعوب، بل يحول بين الشعوب وبين إطلاق أي سهم. وفي الميسور القول بان هذه الطبقة نفسها تعمل عل تخريب العالم الإسلامي كله من المغرب حتى اندونيسيا، وذلك بغية صيانة أمن الغيتو الصهيوني الذي لا يعيش إلا إذ خربت بلدان المسلمين كلها. وهذا يعني أن ثمن الغيتو باهظ جداً. ويبدو أنهم يعتقدون بأن تقدم أي بلد عربي يشكل خطراً على أمن الغيتو. ولهذا فقد ضربوا بالصواريخ البعيدة المدى مصنعاً للأدوية في السودان بذريعة أنه ينتج أسلحة كيماوية، ولكنهم ضربوه لأنهم لا يريدون أن تكون للعرب (قوة تسمح لهم بان يرفعوا رؤوسهم). وهذه عبارة لشامير الذي كان رئيساً للغيتو في أواسط الثمانينات.

ولكن اليهود لا يتورعون عن أن يلحقوا كارثة ببعض أفراد تلك الطبقة الخائنة إذا لزم الأمر. وهذا ما جرى في العراق يوم سمحوا للناس بان يجروا جثة نوري السعيد في شوارع بغداد، مع أنه قاتل معهم ضد الأتراك سنة ١٩١٦م. وأما رجال النظام البائد في العراق، وهم من قدموا أكبر الخدمات لليهود وأدواتهم الغربيين، فقد تعرضوا للسجن والقتل والامتهان والتنكيل، مع إنهم كانوا يناولونهم نفط العراق كله مقابل

رشوة صغيرة جداً، إذا ما قورنت بمجمل الغنيمة النفطية، أي كانوا ينالون من الجمل أذنه، كما يقول أحد أمثالنا الشعبية. فاليهود لئام حقاً، ولا يقيمون وزناً لأية قيمة إنسانية. فلا مبالغة في القول بأن لؤمهم هو الذي جعلهم يوجهون الجيوش الأمريكية والبريطانية والاسترالية (أي الناطقة باللغة الإنجليزية) ابتغاء الثأر للسبي البابلي الذي تعرضوا له قبل ستة وعشرين قرناً، وإن لم يكن هذا الثأر هو الهدف الوحيد لهذا الحادث التاريخي الفريد من نوعه طوال الزمان. ولقد أسهمت الطبقة الخائنة أيما إسهام في هيمنة الجيوش المتحالفة على العراق، إذ لقد حلت الجيش العراقي سلفاً ومنعته من إطلاق أية طلقة ضد المعتدين.

أما أكبر تخريب مارسته الطبقة الخائنة فهو استئصال الجذور التي تؤثل الشخصية العربية في الزمان والمكان. فالطبقة الخائنة لا تكتفي بتخريب المؤسسات الاجتماعية والثقافية والتعليمية والعسكرية والاقتصادية، بل هي تخرب روح الإنسان وتدمرها من داخلها. لقد كان إنساننا طيباً مضيافاً شهماً، فيه أنفة وشعور بالعزة والكرامة، فأحالته هذه الطبقة الخائنة إلى حثالة، فهان عليه ابتذال شرفه بحيث صار داجناً مثل كلب جائع، وذلك لفرط ما مارسته عليه من قمع وتنكيل.

ثالثاً- حراسة النفط وضمان تدفقه إلى أوروبا وأمريكا، وبيعه هنالك وفقاً لمبدأ (التبادل اللامتكافىء). وهو المبدأ الذي يقضي بأن يدفع العرب بحيرة من النفط

مقابل سيارة، مثلاً. وهذا يعني أنه ينهب- أو يباع (بسعر الفجل)، كما يقول واحد من أمثالنا الشعبية. وربما كان النفط العربي لا يباع، بل يؤخذ كله مقابل مبلغ زهيد يدفع للحكومات المستخذية، مهما تكن كمية النفط المشحونة إلى الغرب. فمما هو شديد الجلاء أن نهراً من النفط بحجم نهر النيل أو نهر الفرات يتدفق دون انقطاع من البلدان العربية إلى أوروبا وأمريكا. ومع ذلك، فإن ثلاثة أرباع السكان في هذه البلدان يعيشون تحت خط الفقر، بينما راح النفط يفرز، ولا سيما خلال السنوات الثلاثين الأخيرة، طبقة من أصحاب المليارات المتحالفين جهرة مع اليهود والغربيين، ضد شعوبهم غير القادرة على مواجهتهم في زمن الأجهزة الأمنية المتفشية في الجسم العربي كالوباء، والتي تتحمل المسؤولية المباشرة عن خراب العالم العربي بأسره. أو عن إذلال المواطن وإذعانه واستلاب حريته وكرامته وتحويله إلى غثاء كغثاء السيل، حتى لكأن تلك الأجهزة تخاطبه على هذا النحو: إمّا أن تركع وإما أن تموت.

****

لا يخفى على الألباء أن نفط العرب استطاع أن يغير العالم بأسره، وعلى نحو صميمي عميق، بحيث صارفي ميسور المرء أن يذهب إلى أن الحضارة المعاصرة ما كان لها أن تعرف دربها إلى الوجود بغير ذلك النفط الذي جاء وبالاً على العرب كلهم، ولا سيما

على الشعب الفلسطيني، إذ جعل لفيفاً من الأمم يتهافت عليهم كما تتهافت الأكلة على قصعتها. وفضلاً عن ذلك، فإن الغيتو الصهيوني ذا الهوية الطفيلية أو الابتزازية هو إفراز من إفرازات النفط العربي، وإن مصير ذلك الغيتو مرهون بمصير ذلك النفط نفسه، إذ لا بد للغيتو من أن يجف يوم يجف السائل الأسود. فمن المؤكد أن فكرة الغيتو الصهيوني قد انبجست من التوراة حصراً، إذ يجوز القول بأن تلك البنية ما كان لها أن تكون لو لم تكن هنالك توراة، وهذه هي الرجعية أو الأصولية بأم عينها. ولكن تحويل الفكرة إلى حالة عينية قد تم لان هنالك نفطاً غزيراً في بلاد العرب. وذلك لأن النفط قد موّل الغيتو ومكنه من استقدام ملايين المهاجرين وزوده بجيش ضخم جداً من ناحية العدد ومن جهة العتاد الحربي. ولولا النفط لما استطاع الغيتو أن يكون إلا بنية ضامرة وفقيرة نسبياً.

وبما أن سكان الغيتو يعيشون في (مهد عيسى). كما يقول أحد أمثالنا الشعبية، أي يعيشون في رخاء وثراء، فإن في ميسور المرء أن يظن بأن الطبقة الخائنة تدأب على أن تتنازل له عن كمية كبيرة جداً من المال كل سنة. بل إن في الإمكان الظن بأن حصة الغيتو من نفط العرب أكبر من حصة أي دولة عربية من الدول المنتجة للنفط. ويملك الذهن أن يستخلص هذه الحقيقة بتساؤل بسيط : من أين لهم هذا كله؟ إن صناعتهم

خفيفة، ومثل هذا الثراء لا تنتجه إلا البلدان الصناعية الشديدة التقدم.

ولعل مما هو صادق تمام الصدق أن العرب إذا ما أحرقوا نفطهم الذي لم يأتهم إلا بالويلات (نشوء الغيتو الصهيوني في قلب العالم العربي، أو على أرض العرب وبأموالهم، قيام الأنظمة المستبدة الثقيلة الوطأة والتي شلت إرادة الإنسان العربي، سلسلة الكوارث التي حلت بالعراق طوال الجيل الأخير)، والذي يستفيد منه الأعداء الثلاثة وحدهم، لأن الطبقات الشعبية لا تنال منه إلا الفتات، إذا ما فعلوا ذلك، فإنهم سوف يحرقون العصر الحديث بأسره، فيتقهقر العالم صوب المرحلة السابقة على الكهرباء، أي باتجاه الإيقاع البطيء والإنتاج الطفيف. ولكن النفط محروس أشد الحراسة، كما أن القوى العربية الفاعلة في التاريخ لم تنضج بعد، بل لا يلوح عليها أنها سوف تنضج على المدى المنظور. ولا مرية في أن حراسة النفط والحؤول بين القوى الوطنية وبين النضج الفاعل، أو القادر على ممارسة الفعل المفصلي، هما وظيفتان من أكبر الوظائف التي تؤديها الطبقة الخائنة في العالم العربي.

ومما قد يثير دهشة أهل الحضور أن تلك الطبقة الخائنة قد راحت، منذ الحرب العالمية الأولى حتى اليوم، تصطنع أنظمة زورتها وأظهرتها بالمظهر الوطني البّراق، فانطلى بعضها على الكثير من الناس، واستغلها الانتهازيون الذين ربطوا مصائرهم

بخدمة تلك الأنظمة المزورة، أي بالإمبريالية والصهيونية على نحو غير مباشر. أما اليوم فقد اتخذت الطبقة الخائنة قراراً بأن تكشف هويتها الحقيقية، فتبين أن جميع الأنظمة في العالم الإسلامي، من المغرب حتى اندونيسيا، لا وظيفة لها سوى أن تنفذ أوامر اليهود، أقصد يهود أمركا بالدرجة الأولى.

فبين الفينة والأخرى كان يظهر تويفه تقدمه الطبقة الخائنة، بل أجهزتها الأمنية حصراً، بوصفه بطلاً وطنياً أو قومياً كبيراً، مع أنه في حقيقة أمره لا يحل ولا يربط، أي ليس له من الأمر شيء، إذ هو لا يزيد عن كونه دمية في أيدي رجال الأمن الذين هم الذراع الضاربة للطبقة الخائنة، بل للصهيونية والإمبريالية اللتين تهيمنان على ثروات العرب ومصائرهم. فلكم أقيمت أعراس للخصيان في العالم العربي. وربما جاز للمرء أن يعتقد بأن الأشخاص الخمسة الذين يحكمون الولايات المتحدة، وفقاً لظاهر الحال، ليس لهم من الأمر شيء، لأنهم لا يزيدون عن كونهم دمى في أيدي الأجهزة الأمنية التي تحكم معظم الدنيا من مركزها في واشنطن. فلا يخفى على الألباء أن عصرنا هذا هو عصر أجهزة الأمن بالدرجة الأولى.

ولكن العنصر المذهل في التاريخ العربي الحديث هو أن الطبقة الخائنة قد تمكنت من أن تشكم الجيوش العربية وتمنعها من خوض أي قتال من شأنه أن يمثل استجابة فعلية للتحدي الصهيوني الطفيف المقدار.

ولهذا، فقد صارت الأمة العربية فريسة لمن افترس. فمن ذا الذي يشكم الجيوش العربية عند شدة الحاجة إليها؟ من الذي منع تلك الجيوش من أن تقاتل في فلسطين سنة ١٩٤٨م، ومن أن تذود عن حدودها سنة ١٩٦٧م، ومن الذي حل الجيش العراقي ومنعه من أن يصون كرامة العراق سنة ٢٠٠٣م؟. فمن الحقائق المؤكدة أنه لم يكن هنالك جندي عراقي واحد على الحدود الجنوبية للعراق يوم راح الأمريكيون والإنجليز يتدفقون من الكويت ويتجهون شمالاً باتجاه بغداد. والغريب أن الناس لا تدهشهم هذه الحقيقة التي تملك من القدرة ما يذهل القردة.

ولعل في ميسور المتتبع لتفاصيل الصراع المسلح في منطقتنا منذ عام النكبة حتى اليوم أن يستخلص حقيقة مؤداها أن البنية العسكرية العربية لا خلل فيها ولا عيب، وإنما يكمن الخلل في البنية السياسية حصراً. فلقد أثبتت الجيوش العربية مراراً، وعلى أرض الممارسة أنها شديدة القدرة على إلحاق الهزيمة بالعدو، ولكن شريطة أن تتلقى الأوامر بالقتال. ومن أبرز الأمثلة على ذلك تفوق الجيش الأردني على الجيش الصهيوني طوال مسلسل المناوشات التي دارت بينهما في محيط مدينة القدس سنة ١٩٤٨م. ولا عجب في ذلك، فقد بني الجيش الأردني بحيث يتصدى للألمان لو أن جيوشهم وصلت إلى منطقتنا، ولا سيما إلى نفط العراق.

إنها الطبقة الخائنة التي دجّنت الإنسان العربي وأذلته ومرغت أنفه في الوحل، والتي لا أمل للعرب في البلوغ إلى طور الكرامة والشرف قبل تدميرها عن بكرة أبيها، أي قبل إنجاز فعل مفصلي شديد الشبه بالثورة الفرنسية حصراً. وهذا يعني ثورة تأخذ إلى المقصلة جميع الذين أسهموا في إذلال العرب، أو في تركيعهم أمام الأغيار.

الفصل الخامس

اغتيال التاريخ العربي

واضح لكل مراقب نزيه أن الغيتو الصهيوني شاذ وغريب في منطقة لها درجة عالية من درجات التجانس أو التماثل، بينما هو نبتة أجنبية غرست إعتسافاً في بيئة لا تشبهها في أي حال من الأحوال. ولكي لا يتبدى الغيتو شاذاً وغريباً وليس من جنس محيطه، فقد عملت الإمبريالية والصهيونية والطبقة الخائنة على إظهار المنطقة العربية وكأنها هي نفسها تتألف من خليط متنافر أو متباين لا يشبه بعضه بعضاً ولو نسبياً. فهي تتألف من أقليات دينية وطائفية وعرقية أو لغوية. ومع أن هذا صحيح جداً، فإن العالم العربي يتمتع بتجانس نسبي واضح. ومن شان هذا التجانس النسبي أن يجعل الصهاينة غرباء جداً في داخل البيئة العربية. ومن المؤكد أن البنية الصهيونية شديدة التنافر، وأن الفرق بين اليهود الشرقيين واليهود الأوربيين هو مسافة كبيرة لن تتمكن الصهيونية من القضاء عليها في أي يوم من الأيام.

ولكي يستمر الغيتو الصهيوني في الوجود، ولكي يتمكن الصهيوني من نهب النفط العربي باستمرار، كان لا بد من تدمير الشخصية العربية، أو الجذور التي تغذيها باليخضور والحيوية الدائمة، وذلك بإقناع كل عربي بأن تراثه المكتوب ليس سوى هراء، وبأن لغته العربية المعقدة هي سبب تخلفه، وبأن دينه الإسلامي هو دين التعصب والإرهاب والعدوان واضطهاد المرأة وبأن تاريخه هو تاريخ القتل والجور والاستبداد، وكذلك تاريخ الجواري والغلمان والخمور والقصور والسلاطين العتاة الطغاة. ولهذا السبب طفق بعض الكتاب الخونة العاملين لصالح الإمبريالية والصهيونية، سواء أكانوا يعون ذلك أم لا يعون، يقدمون التاريخ العربي بوصفه تصدعاً مستمراً منذ سنة ٦٣٢م، أي منذ تولى الخليفة الأول أبو بكر الصديق السلطة، وحتى سقوط الدولة العثمانية زهاء سنة ١٩٢٠م.

ومن المفارقات أن ذلك كله قدتم باسم حرية العقل وضرورة الانتقاد. وفي الحق أن سفالات لها القدرة على أن تصحن قرص الشمس قد ارتكبت تحت أفضل الشعارات وأكثرها نقاء وطهارة. فثمة ثقافة خائنة. ولا ريب في أن الفئة الثقافية الخائنة تعمل هي الأخرى لحساب اليهود وأدواتهم الغربيين، سواء أكانت تعي ذلك أم لا تعيه. بل يجوز القول بان الفئة الثقافية الخائنة هي مفرزة من مفارز الطبقة الخائنة الآنفة الذكر. ومما هو لا فت للإنتباه أن هذه الهجمات الثقافية الضارية لا

تلاقي في الزمن الراهن أيما دفاع من أية جهة، شأنها في ذلك شان الهجمات العسكرية تقريباً، إذ من الواضح أن هنالك تحد بغير استجابة تكافؤه، ولو في الحدود الدنيا. فلقد تجرأ أحد الشعراء المشهورين الذين يكتبون باللغة العربية وشتم الإسلام في أحد كتبه دون أن يتلقى أيما عقاب من أي إنسان. (الشهرة ليست دليلاً على القيمة دائماً). وإذا ما أردت أن تستعمل مقولات توينبي، دارس التاريخ المشهور، وصاحب نظرية التحدي والاستجابة، لقلت بأن استجابة العرب ليست على مستوى التحدي بتاتاً. وفي اعتقاد توينبي أن المجتمع سوف يتلاشى حين تكون استجابته أدنى من مستوى التحديات. وهذا هو حال العالم العربي اليوم. إنها معركة من طرف واحد، وذلك لأن العرب مشكومون بالأجهزة التي صنعها الحلف المثلث الذي ينهب الثروات العربية بجشع متطرف لعله أن يكون مظهراً من مظاهر اللاعقلانية التي تنسج الوجه السلبي للتاريخ.

إن التاريخ العربي، أو التربة التي تغذي جذور الشخصية العربية بالنسغ الأخضر الحي، وكذلك الهواء الذي يتنفس منه الإنسان العربي، يتعرض اليوم إلى قصف عات، يستهدف لا تلويثه وتشويهه فقط، بل إلغاءه حصراً، لأنه في زعم الأعداء الداخليين، الذين هم أخطر من الأعداء الخارجيين بكثير، والذين لا تزيد أصواتهم عن كونها أصداء لأصوات هؤلاء

الأعداء، ليس سوى عار وشنار ينبغي التنصل منه وبأسرع وقت ممكن، وذلك إذا أراد المرء نجاة من التلوث بوحل الماضي المقيت، على حد مزاعم الخونة الثقافيين المتآمرين مع اليهود والإمبرياليين.

ومن الغرائب والعجائب أن يكون التاريخ العربي وحده هو الشيء الرديء، بل تاريخ الدماء والإجرام والحروب. أما تاريخ الأمم الأخرى فيسكت عنها أولئك الأدعياء الزائفون الذين يتنكرون، بغير وجه حق للوظائف الكبرى التي نهض بها العرب المسلمون منذ القرن السابع الميلادي وحتى القرن الخامس عشر. وأصغر وظائفهم أنهم أيقظوا أوروبا من سباتها. ولقد أصاب اشبنغلر حين لاحظ أن أسبانيا اكتشفت أمريكا بفضل التقاليد البحرية التي تركها العرب في ذلك القطر الذي لا يزيد عن كونه مفصلاً يشد الغرب إلى الشرق.

ثم إنهم يطمسون أبرز حقيقة من حقائق التاريخ العربي، وهي أنه حيثما حل العرب التراثيون حلت الحضارة والعمارة والمدن والعلم والطب والفلك والكيمياء والمشافي والحمامات والمدارس والكتابة والكتب والشعر والموسيقى والبستنة والبحرية والحرف اليدوية، وما إلى ذلك من إنجازات حضارية. فليس من قبيل الصدفة أن تكون إيطاليا السبّاقة إلى النهضة في أوروبا. إنها أقرب البلدان الأوروبية إلى العالم العربي، وإن صلاتها بمنطقتنا ترقى إلى أيام الفينيقيين.

فلماذا يغفلون جميع هذه الجوانب المشرقة في تاريخنا ويصبون تفكيرهم الكسيح كله على السلبيات وحدها؟

لأن العرب هم أعداء اليهود، ومن عادى اليهود عادته البشرية جمعاء. فها قد احتشد العالم من اليابان شرقاً إلى اليابان غرباً وهجم على العراق ابتغاء حماية الغيتو الصهيوني من خطر محتمل في المستقبل البعيد. وهذا هو معنى (الضربة الإستباقية). إن العجائب جمة، لكن الأعجوبة الأكثر إثارة للاستهجان هي استنفار نصف هذه الدنيا لتسهر على أمن الغيتو الذي لا يساوي قشرة بصلة. فلقد أسرف هذا العالم السخيف في السخف الذي صار الصفة الأولى للزمن الراهن. يقيناً إن حجم الهجمة على العرب في هذه الأيام اليرقانية الكابية أضخم من حجم الهجمة التي شنت عليهم في الحروب الصليبية. وذلك كله من أجل اليهود بالدرجة الأولى. ولعل انحياز شطر كبير من سكان البلدان العربية للغزاة أن يكون الفرق الأكبر بين الصراع الدائر الآن والصراع الذي دار في زمن الحروب الصليبية.

****

ومما هو ملحوظ أن أوار الحملة على التاريخ العربي قد اشتد منذ اشتداد الحملة على العراق سنة ١٩٩١م، وهي التي لا يملك أحد أن يتنبأ بنهايتها على نحو دقيق. ثم إن اللغة العربية، التي هي العنصر الذي يلحم العالم العربي بعضه ببعض، قد تعرضت لهجمات كثيرة وشديدة

التنوع. ولكن الأمر قد تعدى ذلك كله إلى مهاجمة الدين الإسلامي الذي هو العماد الحامل للتاريخ العربي كله. ويبدو أن تفتيت الشخصية العربية، أو استئصال جذورها، يتطلب تدمير الأركان الأربعة التي تحمل هذه الشخصية "التاريخ العربي واللغة العربية والتراث العربي والدين الإسلامي". فلقد بلغت الصفاقة ببعض أولئك الكتاب الخونة أن قبحوا الإسلام لأنه في زعمهم لا ينتشر إلا بالحرب وإراقة الدماء، فضلاً عن انه يضطهد المرأة ويضطهد الأقليات غير الإسلامية.

ومما لا يخفى على ذوي الألباب أن تسديد ضربة للإسلام كدين لا يختلف البتة عن تسديد ضربة للوطن أو للعرب. ولو لم يكن الإضرار بالدين الإسلامي يؤدي إلى الإضرار بالوطن أو بالشخصية العربية لصالح اليهود وأدواتهم الغربيين لما أقدم أولئك السفهاء على شتم الإسلام بذريعة أنهم يعملون من أجل الحرية، وهي الشعار الذي مارسوا تحته لؤمهم كله. فلو كانت الزردشتية ديانة العالم العربي الراهن، وليس الإسلام. لهاجموا الزردشتية وتركوا هذا الدين لشأنه، وذلك لأن هدفهم هو تدمير كل شيء يعادي اليهود. ولكنهم يسكتون عن المجازر ذات الدافع الديني التي ارتكبها اليهود القدماء في زمن (آبائهم)، والتي تصفها بعض أسفار التوراة بالتفصيل. وليرجع من شاء إلى سفر المكابيين ليرى حروبهم الدينية وليعرف كيف فرضوا ديانتهم

على أهل الجليل بقوة السلاح، وذلك في القرن الثاني قبل الميلاد.

ولعلهم يجهلون كيف فرض شارلمان المسيحية على الألمان بقوة السيف، كما يجهلون كيف استأصلت أوروبا شأفة المانوية في جنوب فرنسا بالحروب والمجازر المروّعة. ومما يعرفه الجميع أن أوروبا مازالت حتى الآن ترتكب مجازر بحق غير المسيحيين، وبخاصة المسلمين في البلقان. أما ما فعله الأسبان بالهنود الحمر في أمريكا اللاتينية، وخاصة بقيادة كورتيز، ذلك القرصان الدموي، في النصف الأول من القرن السادس عشر، بغية فرض المسيحية على السكان الأصليين، فذاك شأن يسكت عنه حلفاء اليهود بين المثقفين العرب، كما يسكتون عن المذابح الطائفية التي ارتكبت في أوروبا خلال القرنيين السادس عشر والسابع عشر، ولا سيما مذبحة بارتلميو في فرنسا التي قل نظيرها في التاريخ. فلما كان الإسلام معادياً لليهود وللغيتو الصهيوني دون هوادة، ودون أي أمل في أية تسوية، أصرت تلك العناصر الخائنة على أن هذا الدين وحده هو الذي يقاتل ويسفك الدماء، ولا يتحمل الآخر، كما أنه لا يحترم الذين يخالفونه بتاتاً. أما القنبلتان النوويتان اللتان ألقيتا على اليابان، فإنهما ليستا شيئاً ذا بال، والذين ألقوهما هم ملائكة هبطوا من السماء، وكل من عارضهم فهو إرهابي ينبغي أن

يموت، إذ ما عاد للشعوب أي حق في الدفاع عن نفسها ضد عدوان الإمبرياليين.

ترى، هل كانت للحضارة الأوربية وامتداداتها خارج أوروبا، ولا سيما في الولايات المتحدة، أن تنشأ وتستمر لولا القرصنة والإرهاب والحروب الشرسة الفتاكة التي خاضها الغربيون طوال القرون السبعة الأخيرة، والتي مكنتهم من نهب ثروات الشعوب في كل مكان قابل للنهب؟ فلماذا لا يقال لعن الله حضارة لا تبنى بغير حروب وإراقة دماء؟ وهل يدري أولئك المستفرون لصالح اليهود وأدواتهم الغربيين أن أبشع المذابح وأكبرها في التاريخ البشري كله هي تلك التي ارتكبت في أمريكا الشمالية حصراً، أي في الولايات المتحدة التي هي اليوم مركز الحضارة العلمية والصناعية الحديثة؟ هذه هي حضارتهم التي يهاجمون الحضارة الإسلامية من أجلها، إنها حضارة ذبح الروح على مذبح المادة. فهل تقل الولايات المتحدة عن كونها قلعة للشياطين؟ فإما أن تحترم نفسك وإما أن تحترم تلك الولايات. أما أن تجمع الشيئيين معاً فشأن غير ممكن بتاتاً، إذا ما أراد المرء أن ينسجم مع ما هو مركوز في جبلته الأصلية.

ومما هو صادق في ذهني أن الإنسان الأورو-أمريكي سوف يتلاشى ويخرج من التاريخ، كما تلاشى الآشوري والروماني والمغولي من قبل، وذلك بالضبط يوم يكف عن إشعال الحروب وممارسة السطو المسلح

والقرصنة والإرهاب. فلا يخفى على كل من له إلمام بماضي أوروبا أن الحضارة الأوروبية قد بنتها القرصنة حصراً. ولهذا السبب، فإنها بغير قيمة من الناحية الروحية أو اللامادية، ولا يقيم لها أي وزن سوى أولئك الذين لا تجتذبهم القيم الإنسانية الرفيعة.

ومازالت القرصنة مصدراً من مصادر الرزق في الولايات المتحدة، تماماً كما أن الغارة مصدر من مصادر الرزق عند القبائل البدوية، وإلا فلماذا كانت تلك الحروب التي شنتها تلك الولايات منذ حرب كوريا حتى اليوم؟ ويمكن للمتأمل الحساس أن يرى الهجمة الأمر كية على العراق بخاصة من حيث هي أغرب حادثة في تاريخ الجنس البشري كله. وقد لا يضاهيها في الغرابة والقدرة على إثارة الاستهجان سوى نشوء الغيتو الصهيوني والدعم الهستيري الذي يقدمه الغربيون للغيتو نفسه. فهل سلف أن تواطأت عشرات الدول من الشرق والغرب على غزو بلد بعينه دون أن يكون قد أساء إلى أي منها. وهل يتيسر لأحد أن يفهم لماذا لم تكن هنالك أوامر للدفاع عن بغداد؟ وما حكاية (الماكو) أوامر هذه؟

****

ولم يسلم التراث العربي من هجمات الكتاب الخونة الذين وضعوا أنفسهم في خدمة الأعداء. فابن سينا في نظرهم، نسخة باهتة عن أرسطو، وابن رشد هو الشارح الذي جعل أفكار ذلك الفيلسوف اليوناني قابلة للإستيعاء.

والغزالي وابن تيمية رجعيان ومسؤولان عن تخلف الثقافة العربية وجمودها وانحطاطها. فلم يشفع للغزالي أنه فيلسوف من طراز خاص، كما لم يشفع لأبن تيمية كونه مناضلاً مات في السجن متحدياً للطغيان واستبداد السلاطين. أما ابن عربي، وهو في الحق مارد مهيب، فلا يزيد عندهم عن كونه حالة من حالات الغيبوبة الصوفية المعادية للتفكير العقلي أو المنطقي. وكأن الحياة لا محل فيها البتة لأي شيء لا ينضوي داخل دائرة العقل. لقد بني العالم على سر الازدواج فمن المحال أن يجيء العقل دون أن يجيء اللاعقل، أو أن يجيء النور دون أن يجيء الظلام.

وأما عبد القاهر الجرجاني فلم يخرج، في زعمهم عن الحدود التي رسمها أرسطو في (الخطابة) و(فن الشعر). وكذلك هو حال حازم القرطاجي صاحب كتاب (المنهاج). وبذلك فقد تبددت حركة النقد الأدبي العربية وهي أول حركة نقدية في تاريخ الجنس البشري كله، وكأنها قد انبجست بأسرها من مقال واحد كتبه أرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد.

ولقد تمادى بعضهم، ولا سيما عش الأفاعي المستقر في بيروت، فجاهروا، دون أي حياء، بأن التراث العربي كله يجب نبذه أو بتره من جذوره، وذلك بذريعة التجديد والالتزام بالحداثة التي جعلت من الشعر تهويماً أو لغواً سوف تلغيه الأيام. أليس التراث العربي هو نقطة الازدلاف التي يزدلف إليها العرب جميعاً؟

إذن، ينبغي أن يمحي هذا المزدلف لكي تتفكك الأواصر التي تجعل من العرب أمة واحدة، فلا يظل هنالك أي خطر من شأنه أن يهدد الغيتو الصهيوني في أي يوم من الأيام.

ولقد نادوا بوجوب التخلص من اللغة العربية لأنها، في زعمهم، لا تقل عن كونها العقبة الكؤود أمام تطور الشخصية العربية. وهكذا صار لزاماً على الناس أن يتخلصوا من لغة القرآن الكريم، التي لم تكف عن الوجود منذ الطور الجاهلي حتى اليوم، لتحل محلها لغة عامية لا تصلح للتعبير عن الحقائق بسبب قصورها وضيق مساحتها، أو ضمور معجمها. ولا هدف لهم من وراء ذلك سوى تفكيك العالم العربي وبتر الروابط التي تربط البلدان العربية بعضها ببعض، بحيث لا تبقى هنالك أمة عربية بتاتاً، إذ أن كل بلد سوف تكون له لغته العامية الخاصة، فيصير كل إقليم عربي غريباً عن الأقاليم الأخرى كلها. أما اللغة التي تسمى اللغة العبرية زوراً وبهتاناً، والتي هي الكنعانية جزماً، فإن من الواجب على الجنس البشري أن يتآزر لكي يبعثها حية من جديد، بعد ما كفت عن الوجود منذ آلاف السنين. أليست العربية لغة الإسلام، مصدر الخطر الوحيد على الغيتو الصهيوني؟ أليست العربية هي العنصر الأقوى بين جميع العناصر التي تؤسس الوحدة العربية؟ إذن، ينبغي أن تتحالف قوى شريرة كثيرة في هذا العالم بغية إزالتها من الوجود. ويبدو أنهم اقتنعوا بأن إزالة اللغة العربية أمر متعذر، ولهذا فقد كفوا عن السعي

وراء ذلك الغرض، ولكنهم شددوا الهجمات على الإسلام وعلى التاريخ العربي في الآونة الأخيرة. وعلى أية حال، ينبغي التنويه، بل التأكيد على أن الصراع الثقافي الذي يدور داخل المجتمع العربي لا يجوز تصنيفه بأنه صراع بين التقدم والرجعية، بل من حيث هو صراع بين أهل الوطنية، من جهة، وبين عملاء الصهيونية والإمبريالية، من جهة ثانية. ومما يستحق التأكيد كذلك أن هنالك فئات سياسية في العالم العربي تضع نفسها في خدمة الصهاينة دون أن تعرف حالها وحقيقة أمرها.

****

أما الشعر التراثي الذي يجوز أن يقال فيه بأنه واحد من أعظم الإنجازات التي أنجزتها الشخصية العربية، فقد تعرض لأشرس الهجمات على الإطلاق. وهذه أهم مآخذهم على الشعر التراثي الجليل:

أولاً- إن الشعر الجاهلي، وكذلك بعضاً من الشعر الأموي، منتحل ألفه الرواة ونسبوه إلى بعض الشخصيات الجاهلية. وهذه فكرة أطلقها مرجوليوت وبلاشير وسواهما من المستشرقين الذين راح الببغاوات يقلدونهم بغير حياء. وقد فاتهم أن الشعر الجاهلي له بنية رصينة جداً، كما تتفور فيه طفولة اللغة العربية، بحيث يتعذر إنتاجه إلا على أيدي شعراء فحول لا يمكن لأحد أن يقلدهم بتاتاً. يقيناً، إن معظم شعر امرىء القيس حصراً هو نتاج كتبه إنسان عبقري بكل ما تعنيه لفظة

(العبقري) من معنى. ولا تخفى هذه الحقيقة إلا على من ليست له أدنى خبرة بروح الشعر.

ثانياً- الشعر التراثي أحادي النمط ويجهل التنوع والألوان المتعددة، وعندي أن هذا هو عمى الألوان النقدي.

ثالثاً- الشعر العربي ينقصه الخيال الذي لا شعر ولا فن إلا به. ولقد فاتهم أن هذه صفة للشعر في كل بلد من بلدان العالم القديم، إذ لم يصبح الخيال سمة من سمات الشعر إلا في السنوات المائتين الأخيرة. ولا يدري المرء لماذا يؤخذ هذا المأخذ على الشعر العربي التراثي وحده دون سواه من شعر الأمم الأخرى. ثم من قال إن الشعر لا يكون إلا بالخيال قبل سواه. إن الشطر الخالد من الشعر التراثي يتأسس على مبدأ الوجدان الحي والحساسية المرهفة. وهذا شان أكثر أصالة، بل أكثر إنسانية، من ذلك التهويم الخيالي الذي يسمونه الحداثة.

رابعاً- الشعر التراثي هجاء ومديح وفخر، وهذه إيقاعات أدبية لا قيمة لها في نظرهم. ومن الواضح تماماً أنهم يبرزون الوجه السلبي لشيء من الأشياء التي تخص العرب، ويغفلون وجهه الإيجابي.

خامساً- الشعر التراثي كتبه أناس من الأعاجم، كبشار وأبي نواس وابن الرومي. ومن الواضح أن ثمة في هذا الزعم، صنفاً سخيفاً من أصناف الافتئات على الحقيقة وذلك لأن الشعر التراثي في جميع أطواره قد كتبه شعراء لا يرقى الشك، أكان ديكارتياً أم غير

ديكارتي، إلى الدم العربي الذي يجري في عروق غالبيتهم العظمى.

وهناك من زعم بان أبا تمام الطائي ليس عربياً وإنما هو يوناني موال لقبيلة طي. فقد وجد أحد المختصين بالإساءة للثقافة العربية شاعراً ثانوياً كان قد هجا أبا تمام وقال عنه هذا القول ليسيء إليه. فما كان إلا أن انتهز هذا الخبر وأشاعه كما لو أنه مطلق الصحة. ولم يخطر في باله أن يطرح على نفسه هذا السؤال: لماذا لم يجاهر أبو تمام بأصله الأعجمي كما فعل بشار والنواسي وابن الرومي؟ وبالعكس، فقد أظهر ذلك الشاعر انحيازاً صريحاً للعرب ضد الروم في بائيته المشهورة التي قالها بمناسبة فتح عمورية. ثم لماذا لم يتحدث أحد من الأقدمين عن الأصل اليوناني لأبي تمام؟

لقد كانوا يزورون الحقيقة وهم يعلمون أنهم يزورونها، وعلى نحو مقصود سلفاً، ودون أي شعور بالحياء أو بالاحتشام. فهل يخفى على النزيه أن الجرجاني هو تطوير حي وفذ لأرسطو، أو لأفكاره النقدية حصراً، بحيث صار الفارق بين الرجلين شاسع البون، بل هو من الضخامة والإندياح بحيث لا يخفى حتى على المكفوفين. ولكنهم مصممون على تسديد ضربة قاسية للتراث العربي لأنه نقطة ازدلاف من شأنها أن تسهم في توحيد العرب ضد أعدائهم الصهاينة والإمبرياليين. ولقد راحو يتذرعون بذريعة مؤداها دفع الإنسان العربي إلى الأمام وتحريره من عبادة الماضي.

وهذه دعوة خبيثة، أو قل إنها كلمة حق أريد بها باطل، لأنهم يهدفون من ورائها إلى بتر جذور الشخصية العربية ونقلها إلى برهة انعدام الوزن.

كما أنهم دللوا على الخطل الذي يستفر في أذهانهم حين راحوا يطالبون العرب بأن يفكروا كما يفكر الغربيون، جاهلين أو متجاهلين أنه ما من شعب في الدنيا يفكر مثل إي شعب آخر، إذ لابد من أن يؤخذ الزمان والمكان في الحسبان. فالفرق حتمية واقعية (حتى تفضل العين أختها)، كما يقول المتنبي. والأشياء مبنية على مبدأ التنوع في الوحدة، دون أدنى ريب.

ومن الغرائب أن شعراء الغرب، ولاسيما اليوت وعزرا باوند، قد أدركوا القحل الذي أصاب الحضارة الأوربية، وخاصة حين نشر الأول قصيدة (اليباب) سنة ١٩٢٢م. ومع ذلك فقد أصر بعض الكتاب المحدثين في العالم العربي على وجوب اندفاعنا صوب تلك الحضارة الأوربية الآخذة بالتفسخ والتزنخ دون خفاء. ويتكلم أهل الرعونة هؤلاء وكأنهم يملكون المفتاح الذهبي للحقيقة. وكل من خالفهم فهو في نظرهم، رجعي أو متخلف، ولا محل له في مملكة المستقبل التي يتوهمون.

إن للعقل أن يستهجن كيف يطالبنا أولئك المغمى عليهم بان نتقمص شخصية الغربيين الهمج الذين لم يعد لهم من وظيفة سوى تنكيد حياة الناس ونهب ثرواتهم وإبادتهم بالمجازر الإستئصالية والتنكيل بهم في كل مكان من أماكن هذه الكرة الأرضية المنكوبة بجميع

أصناف النذالة. فطوال القرون الستة الأخيرة وهم يطحنون عظام البشر في كل مكان من أجل أن ينالوا هذا الترف التافه الذي لم يسفر إلا عن استهلاك الوجه الإنساني للكائنات البشرية.

ترى، هل تصلح تلك المجتمعات الأورو- أمريكية التي تضرب الناس بالأسلحة النووية وتشن الحروب وتخطف اللقمة من أفواه الأطفال في البلدان الضعيفة والتي تفعل ذلك كله دون أن يرف لها جفن. لأن ضمائرها مترمدة وأرواحها منطفئة، هل تصلح كي تكون قدوة لأي إنسان معافى من أي داء وبيل؟ وهل يخفى على أي كائن بشري حساس أن الغربيين لم تعد لهم من مهمة سوى تجريد الحياة في البلدان الفقيرة أو الضعيفة من عذوبتها وتحويلها إلى بؤس كالح وشقاء مرير؟ وهذا يعني أن أقطار الغربيين المبنية من عظام الأمم المضطهدة ليست سوى قلاع للشياطين والسعالي وحصون للأبالسة الجحيميين المسرودين من جميع أصناف الشرور. والغريب أن عدداً كبيراً من أدباء أوروبا وأمريكا قد أدركوا خواء الروح في الغرب أو استحالته إلى رماد، بينما لا زلنا نحن مصدومين بهذه الحضارة التكنولوجية القاحلة، أو ذات الماهية اليرقانية والمذاق التافه.

ويبدو أن للغربيين بهرة مغناطيسية لم ينج أحد من تأثيرها الفتان. إنه غرب الترف والثراء والمعجزات العلمية والصناعية الشبيهة بالسحر. ثم إن الوجه المادي

لهذه الحضارة الحديثة هو اليوم في أقوى مراحله. فالجانب الشائخ منها هو وجهها الروحي والأخلاقي والثقافي، وهو الجانب الذي لا يهم أولئك الذين لا يعنون بالقيم اللامادية أيا كان نوعها.

ومما هو مدعاة للتساؤل أن تعجز الفلسفة الأوربية الحديثة عن اكتشاف الشيخوخة التي حلت بالجنس البشري كله مع الصناعة، وهي التي ظن ماركس (وهو من اعتقد بأنه يملك المفتاح الذهبي للحقيقة) بأنها سوف تخلص الإنسان من بؤسه وتبني له جنة على الأرض، مع أنها ليست في حقيقتها ولكُنْهِ أمرها، سوى السم الذي سمم حياة الناس. ولا ريب في أن هذه الصناعة، التي أسسها اكتشاف أمركا، هي السبب الأكبر الذي صنع مأساة الفلسطينيين، فلولا السلاح المتطور الذي أنتجته الصناعة لتمكن الشعب الفلسطيني من أن يطرد الطفيليات الصهيونية من أرضه بالحجارة وحدها، إذ لا لزوم لأي سلاح آخر بغية الانتصار على اليهودي الجبان.

خاتمة

مخطئ من يحسب أن الصهيونية قد فعلت أيما شيء آخر سوى أنها أنشأت صنفاً من أصناف الغيتو (أو حارة اليهود) على شطر من الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وذلك بعدما تمكن أهل تلك الملة، وهم العاملون في لجج الظلام، من استنفار العرب والعجم والديلم والروم والفرنجة من أجل اغتصاب فلسطين وانتزاعها من أصحابها الطبيعيين. فها هو العالم كله من اليابان شرقاً، إلى اليابان غرباً يدعمهم على نحو شاذ وعجيب ويرضى بتشريد الشعب الفلسطيني تحت كل سماء. فيا له من عالم يباب مهوّد حتى مخ عظامه المنخورة. ولا بد لهذا الموقف العالمي من أن يكون أعجب وأغرب من إدعاء اليهود بأن فلسطين هي أرض أجدادهم، وبأن الفلسطينيين يجب أن يطردوا منها كي يعود إليها (أبناء الله)، وكأنهم قد كانوا فيها من قبل، أو كأنهم ليسوا روساً ولا بولونيين ولا أكرانيين ولا رومانيين... إلخ. فمما لا يخفى على اللبيب أن بنيتهم ملفقة مثل مرقعة الدراويش، إذ أن لغتهم من كنعان، وثقافتهم من بابل، ودماءهم من أوروبا الشرقية.

وبالإضافة إلى مثلبة التلفيق هذه، فإن الغيتو الصهيوني، الذي يجيد صنع البؤس والكوارث، يتصف

بمثلبتين أخريين مثيرتين للاستهجان، وهما الشذوذ واللاعقلانية. فلقد نشأ نشوءاً ليس بالطبيعي بتاتاً. أي ليس كما تنشأ المجتمعات في كل زمان ومكان. إذ خرج من وعد قدمه بلفور، الذي لا يحق له أن يهب مالا يملك. فهل نشأ كيان سياسي على الأرض جراء وعد كهذا الوعد سوى الغيتو الصهيوني؟ ثم إنه قد نشأ بقرار من الأمم المتحدة التي لا تقل عن كونها أداة من أدوات الإمبريالية ووسيلة من وسائل الاعتداء على الأمم الصغيرة الفقيرة. إن المؤسسة الدولية موغلة في الإجرام والخساسة والانحطاط. وهذه ليست شتيمة بل وصف موضوعي نزيه لواقع حالها. ثم إن تجربتها هي أكبر برهان على إخفاق الكائن البشري في الاستحالة إلى إنسان. يقيناً إن هذا الكائن لم يعثر على ماهيته النبيلة حتى الآن، مع أن عمر التاريخ لا يقل عن خمسة آلاف سنة.

كما يتبدى شذوذ الغيتو من حيث أنه مغروس في منطقة تكرهه وتتمنى زواله، لأنه ليس من جنسها بتاتاً فضلاً عن أنه يتطفل عليها كما تتطفل الأشنيات على بعض الأشجار. فلا يخفى على أهل الحضور أن حصة الغيتو من نفط العرب تزيد على حصة أية دولة عربية منتجة للذهب الأسود. وهذا يعني أن على أطفال العرب أن يجوعوا كي يشبع اليهودي ذو الناب الأزرق.

ومن الواضح أن المؤامرة الدولية، التي يتورط فيها عدد كبير من الفلسطينيين، تحاول أن تلقمنا ذلك الغيتو

البغيض لقمة إثر لقمة، ظناً منها أن الصدع قابل للرأب. وهي تراهن على الزمن الذي تعتقد بأنه يداوي الجراح كلها ولو بعد مدة طويلة. وللعاقل أن يؤكد على حقيقة فحواها أن جرحاً كهذا الجرح لا يقبل الالتئام بتاتاً، ولن يحسم الصراع إلا بزوال الغيتو الصهيوني من الوجود، وذلك في المستقبل البعيد. وهذا هو طبع الأشياء، وليس رغبة كاتب هذه السطور. ولئن كان العاقل هو من يدرك الأشياء كما هي تماماً، فإن الحكيم هو من يدرك المضمرات أو المستورات.

ثم إن على كل إمرىء في هذا العالم أن يستوعب ما فحواه أن اليهود قد فعلوا أشنع فعل بين جميع الأفعال التي يتركب منها التاريخ البشري بأسره، وذلك يوم اقتلعوا الفلسطينيين من بيوتهم وشردوهم في جميع أصقاع الأرض. لقد اقتلع الفلسطيني من وطنه كما يقتلع الظفر من الإصبع. فمن فادح الغلط الظن بأن الكارثة التي حلت بالشعب المنكوب هي أمر يسير وقابل للشفاء، أو بأن الصلح قد ظل ممكناً بعد تلك النازلة. إنها لكارثة ينبغي أن يخجل منها كل إنسان دونما استثناء بل أن يرى نفسه مسؤولاً عنها لأنه لم يفعل شيئاً لتصحيح ما حدث. أما أن يصفق العالم لليهود، فهذا هو القرف بأم عينه.

وتتلخص الصفة السلبية الثانية في أن الغيتو لا عقلاني من جميع نواحيه. فهو ينبثق أصلاً من وعد إلهي زائف يزعم اليهود أن الله نفسه قد وعد به إبراهيم

الذي يحق لنسله أن يملكوا ما بين النيل والفرات. وهذا يعني أن الفكرة الصهيونية قد انبعثت من التوراة قبل أن تخرج من وعد بلفور. وبانبثاقها من التوراة ثمة تأكيد على أنها حركة أصولية أو دينية، بل ظلامية، في جذورها على الأقل. ومع ذلك فإن أعداء اليهود هم الأصوليون في نظر الصهيونية ولفيفها العالمي. ومن تخضع أرضهم للاحتلال هم الإرهابيون، أما المحتلون فهم (أبناء الله). فهل من فئة عقلانية، في زمن العلم واكتشاف الفضاء، تعمل ابتغاء إنجاز وعد إلهي سوى أولئك الصهاينة المجرمين؟ وهل من ظلامية ورجعية وأصولية تضارع هذه الظلامية والرجعية والأصولية؟ وهل من العقلانية أن تقدم أية قوة في الأرض على دعم الصهيونية إلى هذا الحد المتطرف الخسيس؟

يقيناً، إن هذا الدعم الأورو- أمريكي لليهود هو واقعة من شأنها أن تشين الغربيين وتثلب قيمتهم، كما أن من شأنها أن تذهل العاقل، حتى وإن كان من الغربيين أنفسهم.

وتزعم الصهيونية أن أجداد اليهود قد خسروا وطنهم قبل ألفي سنة، أو نحو ذلك، وهم اليوم يريدون استرداده بل لقد استردوه وانتهى الأمر، أو كما يزعمون، لقد صححوا التاريخ. وهذا يعني أنهم لم يحسبوا أي حساب للتغيرات التي طرأت على الكرة الأرضية خلال السنوات الألفين التي سبقت نشوء الغيتو. أليست الرجعية هي أن يحاول بعض الناس أن

يعودوا بدولاب الزمن إلى الوراء عشرين قرناً أو زهاء ذلك؟ هذا فضلاً عن أن الادعاء كله زائف. فربما كان لليهود جالية في فلسطين منذ آلاف السنين. أما أن تكون تلك الأرض وطناً لأجدادهم، كما يزعمون، فذلك حديث إفك، ومن المتعذر أن يكون أي برهان حقيقي أو مادي قادراً على إثبات صحة ما يدعون. إنهم سادة الكذب والتزوير والخداع والابتزاز.

إذن، ينهض اليهودي بوظيفة إبليسية لا يملك أحد سواه أن ينهض بها تماماً، كما انه يخلق معضلات جحيمية لا تقبل الانحلال ألا في كوارث مروّعة. فهل في الميسور أن تتدفق النعمة في الشرايين خلال زمن ينخر اليهود عظامه ويحتلونه على هذا النحو الشامل؟

ولئن كانت الفكرة الصهيونية الزائفة قد ولدت ولادة رجعية من التوراة التخريفية المحشوة بالترهات. فإن نفط العرب هو ما جعل وجود الغيتو الصهيوني أمراً ممكناً أو قابلاً للإنجاز. فلكم هو شاذ ولاعقلاني ذلك المجتمع الذي يتعيش من التطفل. فمرة يمارس الصهاينة الابتزاز على الألمان بذريعة كاذبة مؤداها أن النازية قد أبادت ستة ملايين يهودي، وأخرى يمارسون الابتزاز على السويسريين بزعم فحواه أن اليهود قد أودعوا أموالاً في مصارف سويسرا. وما من أحد يعرف كيف يبتزون العرب. ترى، هل سيطالبون الفلسطينيين بتعويض عن استثمارهم لأرض يهوا طوال ألفي سنة؟. ولسوف يذهل المؤرخ الذي لم يولد بعد حين

يكتشف أن إسهام العرب في بناء الغيتو الصهيوني أكبر من إسهام الغربيين والشرقيين مجتمعين. ومع ذلك فإن العرب إرهابيون وليس لهم عند اليهود وأدواتهم الغربيين سوى الازدراء. وربما كان الروس يدفعون الكثير من المال للغيتو نفسه. وقد يجوز الظن بأن اليابان تقدم مالاً هيَ الأخرى (لأبناء الله). ترى، من أين لهم هذا الترف الذي يعيشون فيه؟ وما الذي جعل ميزانية الغيتو تتضخم إلى هذا الحد المذهل؟

****

مما هو جد مفارق أن منطقتنا تزود عدوها بالقوة التي يوظفها من أجل امتهاننا وقتلنا وتحويلنا إلى إذعان مجسّد، وذلك لدى التفكير على مستوى اللباب. فالحروب الثلاثة التي شنتها أمريكا على العراق، ابتغاء إنهاكه وإفراغه من قواه التي تنطوي على تهديد مضمر للغيتو الصهيوني في المستقبل البعيد، هي اعتداءات باهظة التكاليف، وتمولها الفريسة نفسها. كما أن مما هو مفارق، بل مما هو في العجائب والغرائب، أن يقف الجيش العراقي متفرجاً، بينما كان العراق كله يذبح من الوريد إلى الوريد. بل إن هذا الحياد لا مثيل له قبل اليوم بتاتاً. وهو دليل واضح على أن ثمة سراً مكتوماً أو غير مفهوم. إنها سياسة (ماكو أوامر) التي عرفها الناس في عام النكبة. أن لا تكون هنالك أوامر للدفاع عن فلسطين هو شيء مثير للتقزز، ولكن كيف نصف

عدم وجود أوامر للدفاع عن بغداد؟ بأية لغة، أو بأية ألفاظ؟

يبدو أن العدو قد استولى على الجيش العراقي سلفاً، أو قبل الهجوم على العراق. ويبدو أن جيوش العالم، أو معظمها، هي احتياطي للإمبريالية أو للصهيونية. ومن المحال أن تتحرر الأمة العربية إلا إذا استطاعت أن تحطم جميع جيوشها وتدمرها على نحو نهائي، ودون أي أسف على تلك الجيوش التي لا تجيد سوى قتل العرب وقمعهم وإذلالهم. لقد قتلت الجيوش العربية من العرب أكثر مما قتلت من اليهود بكثير. بل إنها قتلت من العرب أكثر مما قتل اليهود منهم.

يقيناً، إن حياد الجيش العراقي هو شأن مثير للاستهجان، ولا يعادله في غرابته سوى أن تتحالف دول كثيرة من الشرق والغرب وأن تهاجم إقليماً من الأقاليم دون أن تكون لها أية مصلحة أو منفعة في ذلك كله، بل عبثاً تبحث عن المنفعة الاقتصادية التي دفعت الغربيين إلى إنشاء الغيتو الصهيوني على أرض فلسطين.

ففي عصر العقل والتنوير الأوروبي حاول بعض علماء الاقتصاد أن يعقلنوا التاريخ، فجعلوا له أسباباً اقتصادية تحركه وتجعله ممكناً. ومنذ أكثر من خمسين سنة وأنصار العقلانية التاريخية يقولون بأن الغربيين قد شيدوا الغيتو الصهيوني على أرض فلسطين لكي يعمل على حماية المصالح الإمبريالية في العالم العربي. ولكن

من حق الذهن أن يطرح هذا السؤال: متى وكيف استطاع ذلك الغيتو الهزيل أن ينهض بتلك المهمة المزعومة؟

ترى، ماذا فعل اليهود في الظلمات الدامسة؟ لقد نخروا عظام الدنيا في الخفاء. وههنا تتضح وظيفة الشمعدان السباعي عند تلك الملة التآمرية الظلامية.

ويبدو أن هذه الغزوة لها غايات كثيرة :(تفتيت العراق، والثأر للسبي البابلي، بل الثأر من الإسلام للهزائم التي مني بها الصليبيون، وكذلك تلك التي منيت بها أوروبا على أيدي العثمانيين ابتداء من القرن الرابع عشر الميلادي). فربما جاز الزعم بان احتلال الغربيين لبغداد هو ثأر لاحتلال الأتراك للقسطنطينية سنة ١٤٥٣م. ولكن ثمة فرق شاسع البون مديد. فإسقاط العثمانيين لبيزنطة حادث أصلي حار وذو نتائج عميقة على التاريخ البشري بأسره. أما استيلاء الغربيين على بغداد فحادث فاتر لأنه نتاج لمؤامرة حقيرة لا تخفى على طفل صغير.

****

بيد أن زرع اليأس في النفوس هو أهم غاية يرومها اليهود وأدواتهم الغربيون من غزو العراق. كما أنهم يريدون أن يجعلوا الذل مألوفاً والشرف غريباً أو أن يجعلوا الهوان هو القاعدة والكرامة هي الاستثناء.

فعلى العرب أن ييأسوا من إمكانية استرداد فلسطين. وحسبهم أن يتمكنوا من استعادة بغداد. وفي الحق أن اليأس قد ترعرع في النفوس وباض وفقس، وأذعن الناس وقبلوا بالذلة حتى درجة التخثر. فما من شعب في الدنيا يملك أن يكافح عدوين في آن معاً، أحدهما خارجي والآخر داخلي. صحيح أن مصالح الطبقة السائدة أو الخائنة في العالم العربي الراهن مرتبطة بالإمبريالية. وهذا هو سبب الخيانة التي تمارسها على الأمة، ولكن لماذا لم ترتبط الطبقة التي كانت سائدة في العالم العربي بالإفرنج أيام الحروب الصليبية؟ ألم يكن ذلك أسهل عليها لحماية امتيازاتها الاقتصادية من خوض ملحمة مروّعة دامت مائتي سنة، أو زهاء ذلك.

يقيناً، إن الحادث التاريخي أعقد مما ظن كارل ماركس، بل هو أعقد مما ظن جميع النظريين الذين تصدوا لمفهوم التاريخ، باستثناء ابن خلدون الذي ترك مجالاً شاسعاً للامفهوم، بل خصص مساحة للزكانة والظن والتخمين. ولقد أوحى بأن ثمة عدالة في قلب المجرى الحي للتاريخ، وذلك حين أكد على أن الترف الذي يؤسسه النهب والسرقة والاغتصاب، هو داء من شأنه أن يفتك بالمترفين وحدهم.

وبما أن العدو المثلث (الإمبريالية والصهيونية والطبقة الخائنة) هو حلف يجسّد عرس الغيلان على السعالي، وبما أنه يسدد لنا من الإهانات والضربات الموجهة بقدر ما يشاء، وفي أي وقت يشاء، فإن حياتنا

بأسرها قد صارت بغير قيمة بتاتاً، بل هي تفتقر إلى المعنى أيما افتقار، ناهيك بالعذوبة والمذاق الطيب، ولا سيما في نظر الحسّاسين وذوي الأرواح المطهمة الكريمة. فالكرامة أولاً، بكل جزم وتأكيد، ومن كان بغير كرامة أو شعور بالأنفة، لا يعدو وكونه حيواناً أو كائناً ميتاً لا تؤثر فيه الجراح، إذ (ما لجرح بميت إيلام). ومما هو مثير للاستهجان، بل للذعر، أو حتى للشفقة، أن لا يشعر الكثيرون بتفاهة هذا الوجود المنذور للشر والألم. فربما كان هنالك من لا يروقه أن يعلن أحد بأن حياة الحسّاسين اليوم هي من المرارة بحيث صارت ضرباً من ضروب الاعتلاف بالتبن والزؤان.

وليس يضير المرء أن يكرر القول بأن العدو الخارجي ما كان له أن يفعل بنا ما فعل لولا العدو الداخلي الخسيس، أي لولا الطبقة الخائنة التي وضعت رقبة الإنسان العربي تحت أرجل اليهود والقراصنة ورعاة البقر. فلكم أصاب ذلك الشاعر الحديث الذي قال بأن الأعداء قد هاجموا المدينة بجيوش جرارة. واصطنعوا جميعَ الحيل والمكائد والأسلحة والعتاد الحربي، فعجزوا عن اقتحامها وارتدوا عنها خاسئين (ولكنهم دخلوك على هيئة الحامية). وهذه هي بالضبط مصيبة العالم العربي الراهن، وهذه هي بدقة خلاصة عصرنا، أو خلاصة تاريخنا العربي في الزمن الحديث. فمدننا يحتلها حماتها ويقتسمونها مع الأعداء، وما من أحد قط يعرف أين يبدأ الخلاص، أو كيف يمكن لهذه

الغمة الكابية أن تتكشف. ولعل كليو، ربه التاريخ نفسها، أن تجهل كيفية الخروج من هذا المأزق التاريخي، بل من هذه الكربلاء الكلية الشاملة، التي تغمس الكرة الأرضية من قطبها الشمالي إلى قطبها الجنوبي. ولكن المثل الجاهلي يقول (اشتدي أزمة تنفرجي.)

****

كثرهم الذين وجهوا إليّ هذا السؤال المتهافت ذا الدلالة الإستخذائية: ماذا استفاد الشعب الفلسطيني من التضحيات الجسام التي قدمها على مذبح الوطن المنكوب؟ وكان جوابي دوماً هو هذا: إن الشعب الفلسطيني قد خسر أعداداً من الشهداء لا تحصى، وذلك منذ صدور وعد بلفور حتى اليوم. أجل، إن الشعب الفلسطيني قد خسر الكثير، بل الكثير جداً، ولكنه ربح شيئاً واحداً هو لباب الوجود البشري بأسره، لقد ربح الشرف والرفعة والكرامة. وهذا يعني أنه قد سوّغ نفسه لدى المؤرخين. فتباً لعالم لا يملك أن يفهم الأشياء إلا إذا تجسدت في مادة اقتصادية، أو في إنجاز عملي. فبينما ركعت جميع أمم الأرض تحت أحذية اليهود المصنوعين من الجشع والأنانية، فإن الشعب الفلسطيني هو وحده الذي أبى أن يذعن لأولئك الأنذال الجبناء الذين اعتدنا على تسميتهم باسم (أبناء الميتة)، وذلك ازدراءً لهم واستخفافاً بهم. ولقد دفع ثمن إبائه قوافل من

الشهداء ونجيعاً ينزف يومياً مثل حناء العرائس. يقيناً إنه الشعب الوحيد الذي يستحق الاحترام بين جميع الأمم التي تحيا اليوم على سطح هذا الكوكب الذي تطبق عليه قبضة الشرور من جميع الجهات. واستناداً إلى ما جرى تملك أن تستوعب ما سوف يجري. إن الشعب الفلسطيني سوف لن يسامح بتاتاً، وإنه سوف يسترد كل ذرة من ترابه الوطني. فالفرق بين الطرفين هو لصالح الفلسطينيين. إن قوة اليهود خارجية، فهي تكمن في الآلة، أما قوة الفلسطينيين فداخلية، لأنها ترخم داخل النفوس. إنهم شجعان ومستعدون للتضحية حتى أبعد الحدود، ولكن عدوهم يحتاج إلى تآزر العالم كله كي يظل على قيد الحياة.

فلعل أبرز واجبات المؤرخ أو وظائفه ألا يكتفي بسرد الأحداث الكبرى والصغرى التي تجري على كوكبنا المنكوب بجميع أصناف النذالة واللؤم، بل إن أعلى وظائفه هي أن يتمكن من البلوغ إلى المحتوى الصميمي لهذا الكابوس الصمغي اللزج الذي يسمى التاريخ، أي إلى الخلاصات اللبابية التي من شأنها أن تجعل فهم الحياة نفسها أمراً ميسوراً. وانطلاقاً من هذا المبدأ يتوجب على المؤرخ أن يقارن بين الأمم، لا ليدرك الفرق وحسب، بل ليعرف صفات كل أمة على حدة أيضاً. وهذه معرفة تيسرها المقارنة أيما تيسير. فالأمم الأوروبية هجومية نارية أو جحيمية، أما الأمة الهندية فدفاعية، بل سلمية أو مائية. وربما صح القول

نفسه على الأمة الصينية التي لم ترسل أيما جيش خارج حدودها في أي يوم من الأيام، ولم تغز أية أرض، ولم تنهب أي شعب من الشعوب. ولهذا، فإن الهنود أصلح للكمال من الأوروبيين، الذين هم قتلة بالفطرة، ولا شفاء لهم من هذا الداء إلا بعدما يتفسخون في الترف، وهذا أمر بات مرئياً بالعين في هذه الأيام. ومما يصلح برهاناً على تفسخهم أن أمريكا قد هزمت مرتين في الشطر الشرقي من آسيا، كما هزمت فرنسا في الفتنام والجزائر. ولم تواجه الإمبريالية هزائم بهذا الحجم الجسيم من قبل. فما دلالة ذلك؟

لقد ظل البشر همجاً مثلما كانوا قبل مئات القرون. وينبغي أن ينصب اللوم من أجل هذه الهمجية الشاملة على البلدان الأكثر تقدماً في مضمار الاقتصاد، لأنها ينبغي، من الناحية الإنسانية، أن تكون مسؤولة أمام ضميرها عن الجنس البشري كله. ولكن أهل تلك البلدان ما زالوا يحترفون القرصنة والإجرام والاعتداء على الأمم الأخرى، تماماً مثل أجدادهم الفايكنغ، أو كما فعل الذين دمروا بغداد سنة ١٢٥٨م. فلقد نهبوا متحف العاصمة العراقية وأحرقوا مكتبتها الوطنية، كما أحرقوا مكتبة البصرة أيضاً. وكذلك فعل المغول يوم قذفوا بالكتب إلى نهر دجلة. وهذا يعني أن الإنسان الذي يعيش في ناطحة سحاب، هو بالظبط كالبدائي الذي يعيش في خيمة مصنوعة من شعر الحيوانات، (حذوك النعل بالنعل)، كما قال أهل الأزمنة الغابرة. وهذه حقيقة

تصلح لتحريض الذهن على التأمل الفلسفي. أما هدفهم التخريبي والاستباقي فلا يخفى على اللبيب، بل هو قد لا يخفى على البلهاء، إذ إن في ميسور الذهن أن يستنبط صورة المفقود من جوف الموجود، وفقاً لمبدأ الألمعية. فتصير برسم البصر بعدما كانت برسم البصيرة. ولقد شوى بعض الإفرنج عدداً من أهل المعرة على النار وأكلوهم، وذلك يوم حاصروا تلك المدينة سنة ١٠٩٩م وها هم اليوم يشوون أهل العراق بالمتفجرات ويأكلون طعامهم حتى لكأنهم يأكلون لحومهم نفسها.

ومما هو برسم الفطنة أن اللغة العربية تقيم صلة فقهية بين الهمج والهجوم، فكلتاهما مشتقة من ثلاثي يقبل الانضواء تحت نظرية ابن جني القائلة بوجود تشابه في المعنى بين صيغ الثلاثي الواحد لدى تقليبها. وأياً ما كان الأمر، فإن الشعوب الأوربية وفروعها خارج أوروبا لا تصلح للكمال الذي هو الغاية النهائية لوجود الإنسان وفقاً لمذهب الشيخ الأكبر، محي الدين بن عربي، وذلك بسبب بعض صفاتها السلبية الكثيرة التي هي شديدة الرسوخ في صميم هويتها طوال تاريخها:

أولاً- شدة ميلها إلى إشباع الغرائز الجسدية، ولا سيما الطعام والبضاع. وهذا أمر لا يترك محلاً للروح ولا للنزعات الروحية.

ثانياً- أنانية أفرادها وإفراطهم في الفردية والميل إلى العزلة والتنصل من الآخر. وهذه مثلبة نجت منها

الحيوانات والبهائم التي هي دوماً في حالة اتصال جماعي.

ثالثاً- شدة الجشع التي تسود تلك المجتمعات، حتى إن الفرد لا هم له في هذه الدنيا سوى أن يحصل على أكبر كمية ممكنة من المال، وكثيراً ما يتم هذا الأمر عن طريق الالتفاف على القانون، أي بواسطة الاحتيال المشروع.

رابعاً- الشخصية الأورو- أمريكية لئيمة وحاقدة على المسلمين حقداً أعمى. وهي تحتقر جميع الأجناس غير النوردية (الشمالية)، وهذا يعني أن لؤمها العنصري لا مثيل له على الأرض، ولم يعرف التاريخ البشري كله نزعة عصرية كنزعة تلك الشخصية المفعمة بالميل إلى العدوان.

إن على المؤرخ أن يسمي الأشياء بأسمائها، فحين يرى لؤماً يتوجب عليه أن يقول هذا لؤم، وإلا فإنه سيكون قد قصّر عن الشأو المرجو.

خامساً- شدة الجنوح إلى العدوان وإراقة الدماء عبر الحروب التي لا يمل الأوروبيون من التخويص فيها على الرغم من نتائجها اللاإنسانية. ولا مراء في أن أوروبا الغربية هي الدائرة الجغرافية الأكثر ميلاً إلى الحرب في التاريخ البشري كله. ولعل تلك الأقوام لا تدرك أنها تهيئ نفسها للخروج من التاريخ، شأنها في ذلك شأن جميع الأمم المحاربة.

ولا ضير في تكرار القول بأن الغربيين هم أقل الأمم صلاحاً للكمال، إذ يتعذر أن يكون الكمال من نصيب الحضارة التي تمنح المرتبة الأولى للمادة لا للروح. وربما جاز الزعم بأن الجنس البشري قد بلغ الكمال في الماضي السحيق، ولا سيما في بعض حضارات الشرق، وعلى الأخص في مصر الفرعونية التي بنت الأهرام بوصفها رمزاً مركباً كثيفاً جداً، وكذلك في بابل التي بنت البرج ليكون بمثابة رمز للسمو، أو للصعود نحو الأعلى، حيث النقاء المحض والبرهة النبيلة. وفي الميسور أن يضيف المرء الثقافة الهندية بوصفها ثقافة علو وكمال. فلقد أنجزت الفيدا وكذلك الابنشاد التي وصفت بأنها (هملايا الروح).

في بابل، دائرة السمو والتطلع نحو الله، كان الطبيب يسأل المريض هذا السؤال المترع بالدلالة : هل منعت أسيراً من رؤية الشمس؟ فلئن كان قد فعل ذلك حقاً فشفاؤه أمر غير مضمون. وهذا يعني أن الطب نفسه مبني على المبدأ الإنساني أو الأخلاقي بالدرجة الأولى. إنه يأخذ الإخاء البشري بالحسبان. (وازن بين هذا الموقف وموقف الصهاينة من الأسرى الفلسطينيين وكذلك موقف الأمريكيين من الأسرى العراقيين). فما قيمة حضارة لا يكون فيها الإنسان إلا ذئباً أو فريسة لذئب؟

لقد ظلت الحضارة الأورو ـ أمريكية سادرة في الهمجية، ليس فقط لأن المذبحة تحل عادة حيثما حل

أهل تلك الحضارة النارية، بل لأنها، قبل كل شيء، قد ظلت بغير رسالة إنسانية من شأنها أن تعيد صياغة الإنسان، وأن تجعل منه كائناً جديراً بمجاورة الله، ولو مجازاً، بدلاً من أن يظل كائناً يعتدي على أخيه الإنسان دون تبكيت، بل دون أي شعور بالحياء، إذ لا يستحي إلا الأصليون أو ذوو النفوس النقية النبيلة. فلكم أصاب الرسول ﷺ حين قال بأن (قلة الحياء كفر)، ولا غلو إذا ما ذهب المرء إلى أن الغربيين، ولا سيما الناطقين باللغة الإنجليزية كلغة أولى، ليسوا بشراً إلا من حيث الصورة الخارجية. والأهم من ذلك أنهم لا يتيسر لهم أن يصيروا بشراً حتى ولو عنتوا.

فما من إنسان على الأصالة إلا حيثما كان الضمير الحي والوجدان الصافي والشعور الإخائي اللطيف. وما من تربية، في المآل النهائي، سوى تربية الضمير التي من شأنها أن تجعل الأنا مفتوحاً على الآخر بوصفه قيمة بلا حدود، أو غاية تتأبى على كل تجاوز، وذلك بدلاً من تربية الأنانية والجشع اللذين هما قوام التربية في الغرب. ولهذا يسعك الذهاب إلى أن الحضارة الغربية هي أكثر الحضارات همجية وبعداً عن الإنسانية وأكثرها إغراقاً في الشراسة والعنف والإرهاب، وذلك بسبب إغفالها للضمير وللإنسان من حيث هو قيمة أو كرامة، مع أنها شديدة الاعتناء بالمواطن الذي تراه مجموعة من الحقوق والواجبات. ولكن ثمة فرق شاسع بين الإنسان والمواطن، إذ الإنسان كلي وشمولي

وعالمي، أما المواطن فجزئي ومحلي فقط. إنهما مقولتان متباينتان كثيراً، حتى وإن كانتا متواصلتين.

كما أن إنضاج وعي العار، أو الإحساس بالعيب فعل لابد له من أن يلازم تربية الضمير. فالبشرية كلها مازالت همجية سادرة في جاهليتها الشائنة المسعورة. فيا له من عار ينبغي على كل إنسان أن يعمل ابتغاء التخلص منه إلى أبد الآبدين. فهو يشين المعتدين تماماً بقدر ما يشين المعتدى عليهم. ولعل في ميسور المرء أن يجزم بأن وعي العار، أو وعي الهمجية العالمية، هو بداية الأنسنة، أو الاتجاه نحو الجوهر والأصالة الإنسانية. ثم إن الغربيين الذين يتنعمون بالرقص والغناء في هذه الأيام ،أو يمارسون الرياضة، أو يتمتعون بمشاهدة من يمارسونها في الملاعب، وذلك بعدما نهبوا الشعوب الأخرى وراحوا يلتهمون ثرواتها، هم كائنات مغمى عليها، في الغالب الأعم، إذ لو كانوا من أهل الوعي والحضور لاكتشفوا أن إنسانيتهم منقوصة أو معطلة من الداخل، وذلك بفعل التربية التخديرية التي يمارسها عليهم اليهود وأصحاب المليارات الذين يريدون مواطناً غارقاً في الخمرة والحشيش والخلاعة، وذلك كي يضمنوا استمرار هيمنتهم على ثروات العالم. فلكم أصاب هربرت ماركوز، المفكر الأمريكي ذو الأصل الألماني، حين قال: إن البرجوازية تقمع بالتلبية والإشباع، أي بالرشوة.

(أما المجتمعات المتخلفة فتقمع بالسلاح والعنف، وأحياناً بالمجزرة.)

وأسوأ ما في أمر الغربيين أن ترفهم قد أعماهم عن الحقيقة، فلم يدركوا أنهم يأكلون لحوم أطفال البلدان التي لا حول لها ولا طول. ولقد أسهم اليهود أيما إسهام في تضليلهم والحؤول بينهم وبين الحق. ولكنهم لو فحصوا حياتهم وعرفوا كل شيء لخدّروا ضمائرهم بذريعة من الذرائع الصالحة لتذويب المعضلة. فقدرة الذهن البشري على اختراع المسوّغات اللئيمة هي كبرى مثالبه وأكثرها إثارة للاشمئزاز.

ولو أنهم فحصوا صناعتهم التي تشبه السحر بسبب قدرتها على اجتراح المعجزات، لا كتشفوا أنها إنجاز لا خير فيه البتة، بل إنها الشر بأم عينه، ولو كان فيه أي خير لما فات الحضارات القديمة المغرمة بالدين والفن والحكمة والشعر، أي بكل ما هو حميم وأنيس. صحيح أن المجتمعات الأولى هي التي اكتشفت المعادن، أو طورت استخدامها إلى حد بعيد، وصحيح كذلك أن المعادن هي التي جعلت التاريخ ممكناً، لأنها صانت القيم المادية وجسدتها، ولكن هؤلاء الغربيين قد تطرفوا في عبادة النار (الطاقة) والمعادن أيما تطرف. كما أنهم أحالوا قوة النار إلى أسلحة نووية كفيلة بإبادة الحياة. إن ابتكار هذه الأسلحة الإبليسية هو نفسه برهان حاسم على أن الإنسان الأوروبي الشمالي موغل في الهمجية واللؤم والحقد على الآخر. بيد أن أبرز مثلبة بين جميع مثالب

هذه الحضارة الأوروبية، ولا سيما نسختها الأمريكية الأكثر إتضاعاً وميلاً إلى الإجرام وسفك الدماء، هي أنها دمار على هيئة عمار. إنها تتألق بشكل فاتن أخاذ وخاصة في نظر الأطفال والأغرار، ولكنه تألق سطح يخفي تحته جميع أصناف الوهم.

فلن يفوت الحكيم أن صناعتهم ليست سوى إنجاز شيطاني لمجتمعات جهنمية لا تقيم للإنسان أيما وزن قط. وما كان لها أن تتطور إلا لأن مواطنها مادي، بل موغل في المادية والجشع والأنانية. ولعل في ميسور الفطين أن يرى في تلك الصناعة ظاهرة تدل على انحطاط الجنس البشري بأسره، وذلك لأنه قد تحول من الفن والشعر إلى الصناعة والإنتاج الاقتصادي، بل إلى اللهاث كالكلاب وراء المال الذي هو مع السلاح أقوى تجسد للشيطان في الوجود. ومالم يتمكن المؤرخ من أن يصير فيلسوفاً والفيلسوف مؤرخاً، فإن الذهن سوف لن يبلغ إلى هذه الحقائق اللبابية بتاتاً، بل هو لن يبلغ إليها إلا بالتحسس الذاتي النبيل.

ومن عرف بلاد الغربيين أدرك أن الإنسان عندهم ليست له قيمة في بلده نفسه، لا من حيث الحقوق المدنية المصونة إلى حد لم يعرف له التاريخ مثيلاً من قبل، بل من حيث الهوية أو الماهية الإنسانية التي لا تعني شيئاً لأحد هناك. إن مواطنهم ليس أكثر من كلب يقعي بجانب الدرب، ويمارس غرائزه بحرية مفتوحة على جميع الاتجاهات، شأنه في ذلك شأن أية بهيمة بغير عقل.

ولعل العزلة أن تكون أشنع داء يكابده المرء في تلك المدن الرهابية المتصحرة أو المتخثرة. إن مواطنهم يلوب على أن ينجز اتصالاً في العمق، ويحن إلى الآخر الأنيس الحميم، ولكنه لا يلاقي سوى اللاشيء. وإذ يلوب على الحب الذي هو اتصال روحي في الصميم فإنه لا ينال سوى لقاء بين أجساد، بل احتكاك جلود وحسب. فيالها من حضارة معقومة حررت الجسد واستعبدت الروح، (والعصر، إن الإنسان لفي خسر).

ومما هو موضوعي تماماً أن قيمة الإنسان تتناسب عكساً مع وفرة المال والبضائع، (تشتق اللغة العربية كلمة "البضاعة" من كلمة "البضاع"). وإنها لمفارقة مذهلة أن يكون الفقر أرأف بالإنسان من الثراء، وأن يكون الشظف، وليس الترف، هو الذي يصون هوية الروح ويحميه من التخثر. فكلما ارتفعت قيمة السلعة وذلك بسبب وفرة المال، أو بسبب تضخمه وكثرته انخفضت قيمة الإنسان، أو قل إن قيمة الإنسان تخسّ كلما خسّت قدرة الوحدة النقدية على الشراء. ولم يقيّض لمنطقتنا المسكينة، وهي التي لم تعد سوى خثارة تاريخية باردة، ولكنها شديدة الولع بإقامة أعراس للخصيان، لم يقيّض لها أن تفلت من هذه اللعنة الحديثة نفسها، إذ لقد استطاع النفط أن يكدس فيها تلالاً من المال، فأدى ذلك إلى شيء من الوهن أصاب الأواصر التي تشد الأفراد بعضهم إلى بعض.

مسكين هو الإنسان. العسر يضطهد جسمه واليسر يضطهد روحه. وهيهات أن نبلغ إلى تسوية، إذ ما من إرهاص يرهص بأي حل مقبول.

ترى، ماذا حل بدائرة الفرعون ابن الشمس؟ هل أحالها التاريخ على التقاعد؟ وهل استطاعت الطبقة الخائنة آن تخصي رجولتها، ولو إلى حين؟ ولكن مقولة المؤامرة هذه لا تملك أن تترعرع إلا في المجتمعات التي خصاها التاريخ سلفاً. ولهذا، فإنها لا تكفي لتفسير ما يجري، على الرغم من صحتها التي تند عن كل دحض أو تفنيد. فمما هو جد مقنع أن المؤامرة نتاج للخصاء، أو لاضمحلال الجوهر والحيوية، أكثر مما هي سبب له أو ينبوع.

ولهذا، ربما جاز الزعم، مثلما زعمت غولدا مائير ذات يوم، بأن (العرب جثة هامدة). ولقد كان لورنس العرب أقل ميلاً إلى الإفراط من تلك المرأة حينما قال: (العرب جنس منهك)، ففي الحق أنهم قد صاروا كائنات ضوضائية تعمل وفقاً لهذا المبدأ: أكبر مقدار ممكن من الصخب وأصغر مقدار ممكن من الفاعلية. هذا هو المبدأ الدائم الذي تسير عليه السياسة العربية منذ سنة ١٩١٦م وحتى اليوم. لقد حل الكلام، بل اللغو، محل العمل المثمر والإنجاز المجدي.

وفي السداد أن يقال بأن العالم برمته يجوز له أن يقهقه من العرب في هذه الأيام الماحلة، إذ لقد تمكن العدو المترع بالخبث والمكر من أن يجعلهم هزوة الدنيا

بأسرها. فيا له من فخ نصبه التاريخ لمنطقتنا التي كانت السبب في جعل التاريخ نفسه ممكناً قبل خمسين قرناً أو أكثر، فحبست في عنق زجاجة لا تملك أن تغادرها. ولكن ما يشفع لها أنها قد عاشت ماضياً بطولياً نادرا بل لا مثيل له، أما الطفيليات التي تسمى اليهود فهي ملة لا بطولية بتاتاً، كما أن أداتها المألوفة في مضمار السيطرة والاستيلاء ليست السلاح والعنف، وإنما هي النقود حصراً. وهذه حقيقة لا يجهلها أحد. ثم إن من شأن مقولة المؤامرة أن تبطل كل زعم بأن الصهاينة قد هزموا العرب في مبارزة عادلة حقاً. ولئن كان هؤلاء القوم (جثة هامدة)، كما زعمت غولدا المولودة في روسيا، فأين وجه البطولة في الانتصار على جثة؟

وعلى أية حال، مادام ثمة مال في هذه الدنيا، فإن الإنسان سوف يظل وسيلة للمال، بدلاً من أن يكون المال وسيلة للإنسان. وما من غلو في الذهاب إلى أن المال قد أحال العالم إلى كربلاء شاملة ودائمة، أي إلى مأساة ومرارة واغتراب في آن واحد، وما من مخرج يلوح في الآفاق بتاتاً. ومن المعلوم أن كربلاء الفلسطينيين قد بدأت قبل ثمان وثمانين سنة، ولكنها لم تنته بعد. وهذا يعني تماماً أن الكائن البشري المغرَّب عن ماهيته لن تعود إليه هويته الأصلية، أو قيمته الروحية اللبابية التي ترشحه ليصير غاية في ذاته والتي استلبها منه المال فحبسه في العبودية والذلة والهوان، إلا إذا زال ذلك التجسد الإبليسي من الوجود زوالاً كلياً

ونهائياً. وعندئذ، بل عندئذ فقط، يمكن للإنسان أن يصير شقيق الإنسان، أو صديقه الطيب الحميم. وبعد ذلك، قد يشعر الوجدان المطهم النفيس، وقد عرف مذاق الحرية لأول مرة، بأن هذه الحياة حب أو جمال يستحق أن يعاش، وبأن هذا العالم مؤهل لاستضافة روح الإنسان.

الموضوع	الصفحة
مدخل	٧
الفصل الأول: المعضلة	١٦
الفصل الثاني: شذوذ الغيتو الصهيوني	٤٨
الفصل الثالث: علائم الانحطاط	٦٥
الفصل الرابع: الطبقة الخائنة	٨٤
الفصل الخامس: أغتيال التاريخ العربي	٩٩
خاتمة	١١٦